دوستويفسكي

الجارة

ترجمة: د. سامي الدروبي



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق - متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الجارة

قصة مترجمة (١٨٤٧)..

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: سامي الدروبي

عن هذا الكتاب..

«الجارة»» (Hoziaïka): كتب دوستويفسكي هذه القصة بين سنتي 1846 و 1847، ونشرت في مجلة «حوليات الوطن» في شهرَّي تشرين الأول (أكتوبر) وكانون الأول (ديسمبر) سنة 1847، مج: 54.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تقديم.. بقلم الدكتور سامي الدروبي

بدأ دوستويفسكي كتابة قصة «الجارة» في خريف عام 1846. وقد أرسل إلى أخيه يقول له أيامئذٍ: لسوف تكون هذه القصة الجديدة خيرًا من رواية «الفقراء». هي من ذلك النوع نفسه، وإنما يقود قلمي في كتابتها إلهام ينبع من النفس رأسًا، فلست أعاني في كتابتها من العناء ما عانيته في كتابة قصة «بروخارتشين» التي أرهقتني طوال الصيف.

فلما نُشرت القصة، كان بيلنسكي قد أصبح لا يطيق أي أدب يخرج عن نطاق الواقعية ذات الاتجاه الاجتماعي، لذلك لم يستطع أن يفهم شيئًا من جمال هذه القصة الرومانسية التي تختلف في حقيقة الأمر اختلافًا كبيرًا عن رواية «الفقراء».

والحق أن القصة وهي على جانب عظيم من الجمال. أول قصة يصور فيها دوستويفسكي شخصية «حالم».

أوردينوف فتى مثقف منفصل عن المجتمع، منحبس في عالم فكره الخيالي وأحلامه الكثيرة، عاكف على كتابة تاريخ للكنيسة. إن هذه السمة الأخيرة فيه تربطه بالشاب التَّقي الرومانسي شدلوفسكي الذي كان دوستويفسكي صديق صباه. وهو إلى ذلك فتى شديد الحماسة تنتابه في بعض الأحيان نوبات صرع. هذه أول مرة يصف فيها دوستويفسكي مرضه هو. والإحساسات الحادة التي كان يشعر بها. إن أوردينوف إنسان منعزل، تفيض نفسه أهواءً مكبوتة لا تنتظر إلا أن تنبجس من قلبه طافحةً عارمةً. فها هو ذا يتوله بجارته الجميلة التي استأجر في بيتها غرفة والتي لا يعرف أهي ابنة الذي تعيش معه أم هي زوجته، وهو شيخ يشبه أن يكون لغزًا، وتوافيه نوبات صرع هو أيضًا والقصة كلها تجري في جو هو إلى الحلم منه إلى اليقظة... في جو لا يكاد يستطيع البطل أن يميِّز فيه أقرب منه بين أحلامه وبين العالم الواقعي.

لا شك أن دوستويفسكي قد تأثر في كتابة هذه القصة بجوجول. إن الجارة تشبه كاترين بطلة «الانتقام الرهيب» (حتى لقد استعار اسمها) التي سخَّرها أبوها الساحر لنفسه. ولكن دوستويفسكي نقل شخوص الجو الأوكراني - الذين وصفهم جوجول - إلى روسيا الكبرى في غابات الفولجا التي يرتادها قطاع الطرق. وهو يتأثر أيضًا بأسلوب سرد القصص الشعبية، هذا الأسلوب الأخاذ الذي عرف كيف يقلده تقليدًا بارعًا موفقًا.

ولهذه القصة موقع مهم بين جملة أعمال الشباب التي أنتجها دوستويفسكي. إن كاترين «قلب ضعيف» مثل أوردينوف تمامًا. وها هي ذي نفسها تقول: «هب الحرية لإنسان ضعيف، يرفضها هو نفسه ويردّها إليك». إن هذه الفكرة سيعود إليها دوستويفسكي بعد سنين طويلة في «الإخوة كارمازوف» فيعرضها بمزيد من القوة والعمق.

إن كاترين مأسورة مسحورة أفسدها مورين، قاتل أبويها. وهي تهتف قائلة عنه: هو شيطاني الخبيث، بعته روحي. فأنا له... أنا ملك يمينه، ويدرك أوردينوف أن مورين

على حق حين يصفها بأنها «قلب ضعيف». إن هذا القلب الضعيف خاضع لمشيئة مورين الشيطانية. إن كاترين لا تستطيع أن تتمتع بالحرية التي يتظاهر مورين بأنه يمنحها إياها. فهي في الفصل النهائي تعود إلى الذي أغواها، رغم أنها تحب الفتى حبًا قويًا. هذه المرأة التي لها نفس حارة ملتهبة، هذه المرأة التي تريد أن تهب الحب الصادق الحر لإنسان جدير بها، ثم هي لا تستطيع أن تتحرر من سلاسل خطيئتها، أليست صورة لبطلة رواية «الأبله»، ناستازيا، وبطلة «الإخوة كارمازوف» جروشنكا؟ وأخيرًا، فلسوف نجد هذا الهوى المحموم المسعور الذي يستبد بمورين، هذا الهوى الذي يعبر عن الظمأ إلى التسلط، سوف نجده في الروايات التي سيكتبها دوستويفسكي في المستقبل. إن دوستويفسكي يعالج منذ الآن مشكلة الحرية والإرادة، في هذه القصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول

1

قرر أوردينوف أخيرًا أن يستبدل بمسكنه مسكنًا آخر. إن صاحبة البيت التي ينزل عندها، وهي امرأة طاعنة في السن، فقيرة جدًا، أرملةُ موظف، قد اضطرت لأسباب لم تكن في الحسبان، أن تترك سان بطرسبرج وأن تمضي لتعيش عند أقرباء لها، في قرية صغيرة، حتى من دون أن تنتظر إلى آخر الشهر، موعد انتهاء استئجارها المنزل. وقد بقي الشاب حتى آخر الشهر، المدفوع الأجرة سلفًا، وهو الآن يفكر، على أسفٍ وحسرة في هذا البيت الذي يضطر إلى تركه، ويشعر من ذلك بحزن شديد. ومع ذلك فالشاب فقير، وأجرة المسكن باهظة. ها هو ذا منذ الغداة، بعد سفر صاحبة البيت، يضع قبعته على رأسه، ويخرج مطوِّفًا في الأزقة الضيقة من بطرسبرج ناظرًا إلى اللافتات الملصوقة على أبواب الدور، متوقفًا عند العمارات القائمة المظلمة المكتظة بالسكان، ذلك أن الأمل في العثور على غرفة تناسبه لدى مستأجرين فقراء في مثل هذه العمارات أكبر منه في عمارات أخرى.

وإنه لفي هذا الطواف والبحث، إذا هو يشعر بعد فترة بإحساسات جديدة تكاد تكون مجهولة تغزوه شيئًا بعد شيء. لقد أخذ ينظر في ما حوله، ذاهلًا غير حافل أول الأمر، يقظًا شديد الانتباه بعد ذلك.

إن الجمهور وحياة الشارع والصخب والحركة والأشياء الجديدة وهذا النشاط كله وهذا الاضطراب الذي تضطربه الحياة اليومية فيضجر ساكن بطرسبرج المشغول المجهَد المرهَق الساعي عمره عبثًا، بجهد ضخم إلى الهدوء والراحة في عشٍ دافئ يحصِّله بعمله أو وظيفته أو بوسائل أخرى. إن كل هذه الأشياء التافهة السخيفة، توقظ الآن في نفس أوردينوف إحساسًا عذبًا فرحًا يوشك أن يكون حماسة. فخدّاه الشاحبان يغشاهما شيء من حمرة، وعيناه تسطعان بأمل جديد، وهو ينشق الهواء البارد الطريّ أنفاسًا كبيرة، بشراهة. إنه يحس بخفة عظيمة لا عهد له بمثلها من قبل.

لقد عاش دائمًا حياة هادئة معتزلة، وحصل منذ ثلاث سنين على درجة علمية، فلما أصبح بذلك حرًا على قدر الإمكان، مضى يزور رجلًا عجوزًا لم يكن يعرفه قبل ذلك إلا بالاسم. وقد تُرك ينتظر مدة طويلة، إلى أن تكرَّم حاجب يرتدي ثياب الحجاب في منازل الكبار، أن يبلغ العجوز وصول الشاب مرة ثانية. فأدخل إلى قاعة عالية السقف مظلمة مقفرة لا تحسن وفادة زوارها، قاعة من هذه القاعات التي لا يزال يوجد مثلها في بعض القصور التي تجمدت فيها الحياة. هناك في هذه القاعة رأى شيخًا أشيب الشعر مثقلًا بالأوسمة والنياشين هو صديق المرحوم أبيه، والوصيُّ عليه. نقده الشيخ مبلغاً ضئيلًا من المال هو البقية الباقية من ميراث أجداده

الذي بيع بأمر من القضاء سدادًا لديونه. فتناول أوردينوف المال غيرَ مبالٍ، ثم ودع هنالك الشيخ الوصيَّ عليهِ إلى الأبد، وخرج إلى الشارع. كان ذلك الأصيل من الخريف باردًا مظلمًا، وكان الفتى ساهمًا شارد اللب واجمًا، في قلبه حزن كبير يمزِّقه تمزيقاً. إن عينيه تشتعلان بلهب، وإن جسمه تعتريه رعشات حمى، وكان، وهو سائر في طريقه، يجري في ذهنه حسابًا، فيدرك أنه بالمال الذي أخذه من الشيخ قد يستطيع أن يعيش سنتين أو ثلاثًا، وربما أربعًا، هذا إذا لم يأكل دائمًا كلما جاع.

وهبط الليل. وأخذ المطر يهطل. واستأجر الفتى أول مأوى وقع عليه، فما هي إلا ساعة حتى كان قد أقام به، واستقرَّ فيه، وهنالك في هذا المسكن، حبس نفسه حبس من يعيش في دير، واستغنى عن العالم استغناءً كاملًا، حتى أصبح بعد سنتين متوحشًا كل التوحش لا يعاشر أحدًا.

أصبح كذلك دون أن يلاحظ. كان لا يخطر بباله أن هناك حياة أخرى صاخبة مضطربة متغيرة جذابة، لا مفر منها عاجلًا أو آجلًا. صحيح أنه سمع عن هذه الحياة بالرغم منه، ولكنه كان يجهلها ولا يسعى إلى معرفتها... لقد قضى حياته في عزلة وهو الآن غارق غرقًا كاملًا في هوًى عميق هوًى لا يشبع ولا يرتوي، هوًى من تلك الأهواء التي لا تدع لأشخاص مثل أوردينوف أي فرصة للقيام بأي نشاط عملي حياتي: ذلك الهوى هو «العلم». كان ذلك الهوى يفسد شبابه بسم بطيء لذيذ حتى ليعكر عليه راحة لياليه، ويحرمه من الغذاء الصحي والهواء النقي الذي لم يكن يدخل مأواه قط. ولكن أوردينوف، المولع بهواه، المشغوف به، كان لا يريد أن يلاحظ ذلك. إنه شاب، وهو لا ينشد الآن شيئًا عدا ذلك. إن هواه يدعه طفلًا في كل ما هو حياة خارجية، ويجعله عاجزًا إلى الأبد عن إقصاء بعض الناس ليتخذ لنفسه مكانًا صغيرًا بينهم عند الضرورة. إن العلم هو في بعض الأيدي رأسمال، أما هوى أوردينوف فقد كان سلاحًا موجهًا ضده.

ولم تكن الرغبة الواضحة المنطقية في التعلم هيا التي وجهته إلى الدراسات التي وقف نفسه عليها حتى ذلك اليوم، بل كان ذلك نوعًا من انجذاب لا شعوري. لقد عُدَّ شخصًا متفردًا منذ أن كان طفلًا، لأنه لم يكن يشبه رفاقه في شيء. إنه لم يعرف أبويه، وهو بسبب طبعه الغريب وبسبب توحشه قد قاسى كثيرًا من زملائه في المدرسة، فزاده ذلك عبوسًا، حتى ابتعد شيئًا فشيئًا عن جميع الناس ابتعادًا كاملًا، وانطوى على نفسه.

وهو في دراساته المعتزلة لم يتبع لا في الماضي ولا في الحاضر نظامًا أو ترتيبًا. كان ذلك فيه أشبه بالاندفاعة الأولى، بالحماسة الأولى، بالحميا الأولى التي يشعر بها الفنان. خلق لذاته مذهبًا خاصًا به فكر فيه سنين طويلة، فكانت تتكون في نفسه، شيئًا بعد شيء، صورة ما تزال غامضة ما تزال بغير شكل، ولكنها جميلة جمالًا لا نظير له. صورة الفكرة تتجسد في شكل جديد مشرق مضيء. وكان هذا الشكل الذي يريد أن يخرج من نفسه يعذبه ويرهقه من أمره عسرًا. إنه يشعر بأصالته وصدقه وقوته شعورًا وجلًا خجلًا. كان مخلوقًا يريد منذ الآن أن يعيش بنفسه، أن يتخذ

شكلاً، أن يتقوى وأن يتعزز في هذا الشكل، ولكن نهاية الاختمار ما تزال بعيدة، ولعلها بعيدة جدًا، بل لعلها مستحيلة المنال لا يمكن الوصول إليها بحال.

ها هو ذا أوردينوف إذن يسير في الشوارع كغريب، كناسك خرج فجأة من صحراء صمته، في المدينة الصاخبة المتحركة، إن كل شيء يبدو له جديدًا طريفًا شائقًا، ولكنه غريب عن هذا العالم الذي يغلي من حوله ويضطرب، عالمٌ يبلغ من غرابته عنه أنه لم يخطر بباله أن يدهش من إحساساته العجيبة هذه. كان لا يبدو أنه واع توحّشه. بالعكس: إن شعورًا بالفرح، شعورًا يشبه شعور الجائع الذي صام زمنًا طويلًا، ثم أعطي ما يأكله ويشربه، كان ينشأ في نفس أوردينوف. لقد يبدو أمرًا غريبًا أن يكون حادث تافه تفاهة تغيير مسكن لأن يطيش لبَّ ساكنٍ من سكان بطرسبرج وأن يلقي في نفسه هذا الانفعال، ولو كان أوردينوف. ولكن يجب أن نذكر أن هذه المرة التي يخرج فيها أوردينوف ربما كانت هي المرة الأولى التي يخرج فيها لعمل. وكان استمتاعه بالطواف في الشارع ما ينفك يزداد، وأصبح ينظر إلى جميع الأشياء نظرة متسكع.

ولكنه ما يزال حتى الآن وفيًا لشاغله المألوف، فهو يقرأ في المشهد الذي ينكشف أمامه رائعًا، قراءته بين سطور كتاب. إن كل شيء يفجأ بصره، إنه لا يدع إحساسًا واحدًا، وهو بنظرته الساهمة يتفرّس وجوه المارة، ويلاحظ مظهر كل ما يحيط به في انتباه، ويصغي مفتونًا إلى اللغة التي يتخاطب بها الشعب، كأن يتحقق خاصة من صدق النتائج التي خلص إليها في هدوء لياليه المعتزلة، وكثيرًا ما يخطف بصره أمر تفصيلي، فيوقظ في نفسه فكرة، فيشعر لأول مرة بالأسف والحسرة على أنه دفن نفسه حيًا في زنزانته. إن كل شيء يجري هنا جريانًا أسرع: نبضات قلبه أقوى، وفكره الذي أرهقته العزلة وكان لا يعمل إلّا بتحريضٍ من الجهد المتحمس ينطلق الآن بخفّة وثقة وجرأة. وهو يتمنى، عدا ذلك، على غير شعور تقريبًا، أن يدخل في هذه الحياة الغريبة عليه، بشكل من الأشكال. ذلك أنه حتى هذا اليوم كان لا يعرف هذه الحياة. أو قل إنه كان لا يتوجسها إلا بغريزة الفنان. إن قلبه يخفق الآن بقلق الحب والمودة رغمًا عنه. إنه يتفرس بمزيد من الانتباه وجوه الناس الذين يمرون أمامه، ولكنهم جميعًا بعيدون مهمومون ساهمون.... وشيئًا فشيئًا تبددت عاطفة أوردينوف. أخذ الواقع يرهقه منذ الآن، ويفرض عليه نوعًا من الخشية والاحترام. إن هذه الفورة من الإحساسات التي كان يجهلها إلى ذلك الحين أخذت تتعبه. فكما ينهض مريض من المرض عن سريره لأول مرة فرحًا، ثم يعود فيهوي بتأثير الضياء وزوبعة الحياة الساطعة، كذلك أوردينوف بهرته ألوان الجمهور الذي يمر أمامه، وأتعبته ضجته... فاعتراه الحزن، وانتابه القلق. وأخذ يشعر بخوف على حياته كلها، وعلى نشاطه، وحتى على مستقبله. إن فكرةً جديدةً تقتل هدوءه: لقد قال لنفسه فجأةً إنه وحيد فما من أحد يحبه، ولا أتيح له هو أن يحب أحدًا في يوم من الأيام. إن بعض المارة الذين كلمهم عرَضًا حين بدأ جولته قد نظروا إليه نظرة غريبة، جارحة. لقد لاحظ أنهم يعدّونه رجلًا مجنونًا، أو يعدّونه إنسانًا شاذًا كل الشذوذ في أقل تقدير، وذلك صادق تمامًا على كل حال. وتذكر عندئذ أن جميع الناس كانوا يضيقون ذرعًا بوجوده، دائمًا، وتذكر أن جميع الناس كانوا، منذ

طفولته، يتحاشونه ويتجنبونه بسبب طبعه المغلق العنيد، حتى إن العطف الذي كان يظهر في نفسه أحيانًا كان يشق على الآخرين أو كانوا لا يفهمونه. ولقد تألم من هذا كله في طفولته، يومَ لم يكن يشبه أي طفل في سنه، إنه يتذكر ذلك الآن، فيدرك أن جميع الناس قد هجروه وهربوا منه في كل وقت من الأوقات.

وظل أوردينوف يسير ويسير، فإذا هو يجد نفسه في حي بعيدٍ جدًا عن وسط المدينة، دون أن يشعر كيف وصل إلى هذا المكان. وبعد أن تناول غداءً مختصرًا في مطعم صغير، استأنف طوافه في الشوارع، فاجتاز ميادين، حتى وصل هكذا إلى طريق تصطف على جانبيه أشجار صفراء وغبراء. ليس ها هنا عمارات غنية، بل أكواخ بائسة، ومباني مصانع ضخمة عملاقة حمراء مسودة ذات مداخن عالية. وكل ما حول ذلك أرض خلاء قفراء. إن كل شيء هنا عابسٌ كالحٌ عدوٌ، أو ذلك ما بدا لصاحبنا أوردينوف. وكان المساء يقترب. وفي آخر شارع ضيق طويل وصل أوردينوف إلى الساحة الصغيرة التي تقع فيها كنيسة الأبرشية.

دخل أوردينوف الكنيسة ذاهلًا. كان القداس قد انتهى منذ قليل. والكنيسة تشبه أن تكون خالية، هاتان امرأتان عجوزان راكعتان عند المدخل. وهذا قندلفت، وهو شيخ قصير أشيب الشعر، يطفئ الشموع. إن أشعة الشمس الغاربة تجتاز زجاج القبة الضيقة موجةً كبيرة فتنير أحد الهياكل بضياء ساطع. ولكن تلألؤ الأشعة يكبو شيئًا بعد شيء، فكلما ازداد تكاثف الظلام في داخل المعبد ازدادت في بعض المواضع روعة تألق الأيقونات المذهَّبة ينيرها الضياء المهتز المنبعث من السُرُج والشموع.

ألمَّ بأوردينوف غمٌّ عميق، وشعور غريب بالاختناق، فاستند إلى الجدار في أعتم ركن من الكنيسة، واسترخى لحظة. ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه حين سمع وقع خطوات صماء منتظمة تدوي تحت قبة الكنيسة، هي خطوات زائريْن اثنين، رفع أوردينوف عينيه فأحس بحب استطلاع لا يوصف حين وقع بصره على هذين القادمين. إنهما شيخ عجوز وامرأة شابة. العجوز فارع القامة منتصب القد، لكنه شديد النحول يعلو وجهه شحوب مَرَضي. يقدِّر المرء من النظر إلى مظهره أنه تاجر من إقليم بعيد. إنه يرتدي قفطانًا طويلًا أسود محلول الأزرار مبطنًا بفراء لا شك أنه الرداء الذي يرتديه للأعياد، وتحت القفطان يبدو ثوب آخر طويل جدًا أحكم عقد أزراره من أعلاه إلى أدناه. وقد لفَّ عنقه بوشاح أحمر فاقع، على إهمال، وأمسك بيده طاقية من فرو، وتهدَّلت على صدره لحية رقيقة شيباء، وإلتمعت تحت حاجبيه الكثيفين نظرة محمومة متكبرة عميقة.

أما المرأة فهي في نحو العشرين من عمرها، جميلة جمالًا رائعًا. إنها ترتدي معطفًا جميلًا قصيرًا أزرق مبطنًا بفراء نادر. وقد غطت رأسها بمنديل من حرير أبيض، معقود تحت الذقن. وهي تمشي غاضة طرفها؛ إن وقارًا واجمًا نابعًا من شخصها كله، يُلاحَظ واضحًا حزينًا على حواشي وجهها الرقيق ذي الخطوط الدقيقة المرهفة العذبة الحلوة الفتية المراهقة.

إن في هذين الرفيقين غير المنتظرَين لشيئًا غريبًا.

توقف الشيخ في وسط الكنيسة وانحنى إلى جميع الجهات رغم أن الكنيسة خالية خلوًا تامًا، ففعلت صاحبته مثلما فعل، ثم تناول ذراعها وقادها أمام صورة كبيرة من صور العذراء التي باسمها تسمَّى الكنيسة؛ كانت الصورة تسطع قرب الهيكل في ضوء باهر من نيران يعكسها إطارها الذهبي المرصَّع بالأحجار الكريمة.

سلّم القندلفت، الذي كان وحيدًا في الكنيسة، على الشيخ باحترام. فردَّ عليه الشيخ السلام بإشارة من رأسه. وركعت المرأة أمام الأيقونة؛ فتناول الشيخ طرف الحجاب المعلَّق بالأيقونة وغطى به رأسها، ودوى في الكنيسة بكاء منتحب أصَمّ.

دهش أوردينوف من جلال هذا المشهد كله، واشتعل فيه شوق شديد إلى رؤية خاتمته. بعد دقيقتين أنهضت المرأة رأسها، فأنار ضوء المصباح القوي وجهها الجميل الأخاذ من جديد. ارتعش أوردينوف وتقدم خطوة إلى أمام. كانت المرأة قد مدَّت يدها للشيخ، فتناولها وخرج الاثنان من الكنيسة على هَوْن. كانت دموع تلتمع في عينَيّ المرأة الشابة، وهما عينان زرقاوان عميقتان، تعلوهما أهداب تبرز على بياض وجهها وتظلل خديها الشاحبَين. وكانت ابتسامة تضيء شفتَيْها، ولكن وجهها يحمل أثار رعب غريب وذعر شديد من ذعر الأطفال. سندت نفسها إلى الشيخ وجلة خجلى، وكان من يراها يلاحظ أنها ترتعش ارتعاشًا قويًا من شدة الانفعال.

شعر أوردينوف بعاطفة غريبة فرحة عنيدة تحرِّضه على أن يتبعها فأسرع يسير وراءهما حتى إذا وصلا إلى الفناء الذي يقع أمام الكنيسة قطع عليهما الطريق، فرشقه الشيخ بنظرة شزراء قاسية معادية، وألقت عليه المرأة الشابة نظرة قاسية أيضًا، ولكن ليس فيها شيء من حب الاستطلاع، وإنما هي نظرة ذاهلة، كأن فكرة أخرى بعيدة كانت تستغرقها.

ظل أوردينوف يتبعهما من غير أن يدركا ذلك. وكان الليل قد هبط. دخل الشيخ العجوز والمرأة الشابة في شارع كبير عريض قذر تملؤه دكاكين صغيرة شتى، ومخازن دقيق، وفنادق حقيرة، شارع يفضي إلى ظاهر المدينة رأسًا. وفي هذا الشارع دخلا زقاقًا طويلًا ضيقًا يحف به من طرفيه سياجان، وينتهي عند جدار ضخم مسودّ هو جدار عمارة كبيرة مؤلفة من أربعة طوابق، يطل مخرجها الآخر على شارع كبير مكتظ بالسكان. فلما أوشكا أن يبلغا هذه العمارة إلتفت الشيخ فجأة إلى الوراء، ورشق أوردينوف بنظرة تعبر عن التبرم ونفاد الصبر. فتوقف الفتى فورًا وقد دهش هو نفسه من سلوكه. ثم إلتفت الشيخ مرة ثانية كمن يريد أن يتأكد من أن تهديده قد أحدث أثره. وولج الاثنان، الشيخ والمرأة الشابة، في فناء المنزل.

عاد أوردينوف أدراجه يؤوب إلى منزله. إنه معتكر المزاج قاتم النفس. وهو يأخذ على نفسه أنه أضاع نهاره كله سدى على هذا النحو، وأنه أجهد نفسه بغير داعٍ إلى هذا الإجهاد، وأنه خاصة قد قام بهذا العمل الذي عدَّه نوعًا من مغامرة وما هو في حقيقة الأمر إلا حادث تافه مبتذل.

ورغم ما شعر به عند الصباح من أسف لعزلته وتوحشه، فإن غريزته الآن تحمله على أن يتجنب كل ما يمكن أن يصرفه عن عالمه الداخلي الفنّي، وأن يذهله عنه وأن ينتزعه منه. إنه الآن يفكر في ركنه الهادئ، بشيء من الحزن وشيء من

الحسرة. ثم شعر بغَمٍّ وخوف، وأحس بهَّم وقلق، قلق على وضعه غير المستقر، وعلى المساعي التي يجب أن يقوم بها، وكًان يحنقه في الوقت نفسه أن يضطر إلى الاهتمام بمثل هذه الأمور التافهة البائسة. وأخذ منه التعب كل مأخذ حتى أصبح لا يستطيع أن يربط بين فكرتين، ووصل أخيرًا، في ساعة متأخرة إلى مسكنه. وما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه أوشك أن يمر أمام بيته من دون أن يعرفه. فهزَّ رأسه استغرابًا لهذا الذهول الذي عزاه إلى تعبه، وصعد سلم المنزل صعودًا آليًا حتى وصل إلى غرفته التي تقع تحت السطح. أشعل أوردينوف شمعة، فما هي إلا دقيقة واحدة حتى انبعثت صورة المرأة الشابة الباكية في خياله. إن هذه الصورة تلازمه وتحاصره قوية التأثير في نفسه. وهو يتأمل قسمات وجهها الحلوة العذبة الهادئة، وجهها الذي يرين عليه حنان خفيّ وخوف قويّ، وتبلله دموع حماسة من حماسة الأطفال أو ندامة من ندامة الأطفال، فيتأمل ذلك كله بحبٍّ يبلغ من القوة أنه يحس عينيه تحتجبان، وأنه يشعر بنار تسري في عروقه كلها. ولكن الرؤيا ما تلبث أن تزول. فبعد الاهتياج يأتي التفكير، ثم يأتي الندم، ثم يأتي نوع من الغضب. وبعد ذلك يتدثر أوردينوف بأغطيته ويرتمي على سريره من دون أن يخلع ملابسه، وقد هدَّه التعب هدًّا...

استيقظ أوردينوف في ساعة متأخرة من الضحى. إنه يشعر بحنق، ويشعر بحزن ووَهَن. ارتدى ثيابه بسرعة محاولًا أن يفكر في همومه اليومية، حتى إذا صار خارج المنزل، وجَّه خطاه في اتجاه هو عكس الاتجاه الذي سار فيه بالأمس. واهتدى أخيرًا إلى غرفة في مكان ما، بمنزل رجل ألماني فقير يسمى سبيز، ويعيش مع ابنته تينيش. فبعد أن استلم سبيز عربون أجر الغرفة، نزع اللافتة التي كانت معلقة عند مدخل المنزل. وقد ارتضى أن يؤجر الغرفة لصاحبنا أوردينوف بسبب شغف أوردينوف بالعِلم، لأنه كان ينوي هو نفسه أن ينصرف إلى الدرس انصرافًا جديًا. وقدّر أوردينوف أنه سيستقر بهذا المنزل في ذلك المساء نفسه. وعاد يسير في الطريق المفضي إلى بيته ولكنه لم يلبث أن فكر قليلًا، فإذا هو يتجه فجأة في الاتجاه المعاكس. كان نافد الصبر، فبدا له الطريق طويلًا كل الطول. ووصل أخيرًا إلى الكنيسة التي دخلها مساء أمس. كانت الصلاة تُرتّل فاختار مكانًا يستطيع منه أن يرى جميع الداخلين إلى الكنيسة تقريبًا. ولكن الشخصين اللذين كان ينتظرهما لم يكونا هنالك. وبعد أن لبث ينتظر مدة طويلة، خرج متَّقد الوجه احمرارًا. وإذ أصر على أن يكبح عاطفة كانت تغزوه رغمًا عنه، حاول أن يغير مجرى تفكيره بكل ما أوتي من قوة. وارتد يفكر في الشؤون اليومية، فرأى أنه قد آن له أن يتغدى، وإذ ظنَّ أنه يشعر بجوع حقًا، دخل إلى ذلك المطعم الصغير نفسه الذي تغدى فيه بالأمس. ولم يتذكر بعد ذلك كيف تركه.

وظل يطوف زمنًا طويلًا في الشوارع والأزقة المزدحمة بالسكان أو الخالية المقفرة، دون أن يكون في ذهنه أفكار واضحة؛ فوصل أخيرًا إلى مكان ناءٍ ليس من المدينة، بل هو برية فيها حقل مصفر. هنالك كان يرين صمتٌ عميق، فشعر أوردينوف بإحساس لم يشعر بمثله منذ زمن طويل، فآب إلى نفسه. إن ذلك النهار هو من تلك النُهُرِ الجافة الباردة التي تُرى أحيانًا في شهر تشرين الأول ببطرسبرج.

وغير بعيد من ذلك المكان كان ثمة كوخ من أكواخ الفلاحين، وعلى مقربة من الكوخ، كانت ثمة كومَتا علف. وهذا حصان صغير ناتئ الجنبين، خافض الرأس متدلي اللسان، يقف بلا عدّة قرب عربة صغيرة ذات عجلتين. كان الحصان كأنه يحلم بشيء ما. وهذا كلب يهمهم وهو يقضم عظمة قرب عجلة محطمة. وهذا طفل في الثالثة من عمره لا يرتدي من الثياب إلا قميصًا يحك رأسه الأشقر، وينظر مدهوشًا إلى هذا الحضَريّ الواقف هنالك. ووراء الكوخ تبدأ حقول وبساتين وعند الأفق يرى الخط الأسود الذي تبدأ عنده الغابة، يحفُّ بالسماء الزرقاء. وفي الجهة المقابلة تتكدس غيوم ثلج وتبدو كأنها تطارد أمامها سربًا من الطيور المهاجرة هاربًا في السماء بلا صياح. كل شيء صامت، كل شيء حزين، كأنه نوع من الانتظار... أراد أوردينوف أن يوغل مزيدًا من الإيغال، ولكن القفر أخذ يقبض صدره. فعاد إلى المدينة حيث سمع على حين فجأة رنين نواقيس الكنائس تدعو المؤمنين إلى صلاة المغرب. حثَّ أوردينوف الخُطى، فلم يلبث أن وجد نفسه أمام الكنيسة التي أصبح يعرفها معرفة جيدة منذ الليلة البارحة.

كانت المرأة المجهولة موجودة هنالك.

إنها راكعة، عند المدخل، بين جمهور المصَّلين. شقَّ أوردينوف لنفسه طريقًا بين الشحاذين والعجائز اللابسات أسمالًا رثة والمرضى وذوي العاهات الذين ينتظرون الصدقات على باب الكنيسة، وجاء يركع قرب المرأة الشابة المجهولة. تلامست ثيابهما. سمع أوردينوف نفَسها اللاهث يخرج من بين شفتيها، ويهمس بدعاء حار، إن عاطفة من تقوى تعصف بقسمات وجهها الآن، كما كانت تعصف به أمس، وإن دموعًا تسيل على خديها الملتهبين وتجف عليهما، كأنما لتغسلهما من جريمة رهيبة. كان المكان الذي يصلّيان فيه مظلمًا تمامًا. وفي لحظات قليلة كان الهواء الذي يدخل من النافذة المفتوحة يهز شعلة الشمعة فتنير وجه المرأة الشابة بضياء مترنح، فإذا بكل قسمة من قسَمات هذا الوجه المنقوش في ذاكرة أرودينوف يعتم بصر الرجل ويطرق قلبه بألم أصمَّ لا يُطاق. ولكن هذا الألم كان يشتمل على متعة لا تغالب. ولم يستطع أوردينوف أن يتمالك نفسه، فها هو ذا صدره يرتجف، وها هو ذا يبكي ناشجًا ويميل بجبينه المحترق فيضعه على البلاط البارد من أرض الكنيسة. أصبح لا يسمع شيئًا ولا يحس شيئًا إلا عذاب قلبه الذي يموت ألمًا لذيذًا.

هل العزلة هي التي أنشأت لدى أوردينوف هذه الحساسية المفرطة وهذا الصفاء وهذا الضعف في العاطفة؟ أكان توثّب القلب هذا يتهيأ في ذلك الصمت الخانق اللانهائي، صمت الليالي الطويلة الساهرة الأرقة التي تتخللها أصوات لا يشعر بها صاحبها، وتخالطها رعشات روح نفد صبرهاَ، أم إن الأمر لا يعدو أن يكون قد آن أوان اللحظة الباهرة، المحتومة، التي لا معدى عنها ولا مفر منها؟ إنه ليتفق في يوم حار خانق أن تتجهم السماء كلها على حين بغتة، فتسقط الصاعقة مطرًا ونارًا على الأرض العطشى؛ وتهطل الصاعقة لآلئ ماء على أغصان الشجر، وتلطم عشب الحقول وتسحق الأزهار الطرية على الأرض، حتى إذا طلعت أولى أشعته انبعثت الحياة في كل شيء من جديد، وأخذ كل شيء يهلل للسماء ويرسل إليها بخوره

المنعش، ويغني لها نشيد العرفان بالجميل... ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن يدرك ما يجري في نفسه، ولا يكاد يشعر بوجوده.

انتهت الصلاة أخيرًا، حتى دون أن ينتبه أوردينوف إلى ذلك، ورأى نفسه يسير في إثر المرأة المجهولة خلال الجمهور المتكاثف عند مخرج الكنيسة. فكانت المرأة الشابة المجهولة تلتفت إليه كلما أوقفها الجمهور عن سيرها من لحظة إلى لحظة. إن دهشتها ما تنفك تزداد، وها هو ذا وجهها يصطبغ بالحمرة على حين فجأة.

وفي هذه اللحظة ظهر الشيخ الذي كان يرافقها بالأمس، ظهر بين الجمهور بغتة فأمسك بذراعها. وإلتقى أوردينوف من جديد بنظرته الشزراء الساخرة، فعضَّ قلبه غضب غريب مفاجئ. وإذ غابا عن بصره في الظلام، اندفع بجهد عنيف فخرج من الكنيسة. ولكن الهواء الطري الذي كان يملأ جو المساء لم يستطع أن ينعشه. إن تنفَّسه يتقطع ويضعف، وإن قلبه يخفق خفقانًا بطيئًا قويًا حتى لكأنه يريد أن يشقّ صدره. وأدرك أخيرًا أنه ضيّع صاحبيه المجهولين تمامًا، فإنه لم يرهما لا في الشارع ولا في الزقاق الضيق. ولكن ها هي ذي فكرة خطة جريئة غريبة تنبت في ذهن أوردينوف، فكرة مشروع من تلك المشاريع الجنونية التي تتكلّل مع ذلك بالنجاح في جميع الأحيان تقريبًا.

ففي الساعة الثامنة من صباح الغد مضى أوردينوف يذهب إلى منزلهما من جهة الزقاق الضيق، فدخل فناءً صغيرًا قذرًا يشبه أن يكون حفرة لأوساخ العمارة.

كان البواب منهمكًا في عمل من الأعمال بالفناء، فلما رأى أوردينوف داخلًا توقف عن العمل مسندًا ذقنه إلى ذراع مجرفته، ناظرًا إلى أوردينوف من رأسه إلى قدميه، ثم سأله عما يريد.

كان البواب فتى في نحو العشرين من عمره، تتريّ الأصل قصير القامة له وجه شاخ قبل الأوان فهو مغضن.

أجابه أوردينوف ثائرًا:

- أبحث عن مسكن.

فسأله البواب مبتسمًا، وهو ينظر إليه نظرة من يعرف قصته كلها:

- أي مسكن؟

فقال أوردينوف:

- أريد استئجار غرفة لدى الجيران.

قال البواب بلهجة غريبة:

- ليس في هذا الفناء غرفة للتأجير.

- وهنا؟

- ولا هنا!

قال البواب ذلك وعاد يتناول مجرفته.

قال أوردينوف وهو يدسّ في يد البواب عشرة كوبكات:

- لعلهم يؤجرونني غرفة مع ذلك.

فنظر التتري إلى أوردينوف، ووضع النقود في جيبه، وعاد يتناول مجرفته مرة أخرى، ثم قال يكرر بعد صمت قصير إنه ليس هنالك غرفة للتأجير.

ولكن الفتى كان قد كفَّ عن الإصغاء إليه، وأخذ يصعد الألواح العفنة الملقاة على بركة واسعة من الماء تفضي إلى المدخل الوحيد الذي يوصل من هذا الفناء إلى الجناح الأسود الوسخ الذي يشبه أن يكون غارقًا في هذا الماء الموحل.

كان يسكن في الطابق الأرضي من الجناح صانع توابيت فقير، مرَّ أوردينوف أمام ورشته ثم أخذ يصعد إلى الطابق الأعلى على سلم لولبي زلج. وعثر وهو يتلمس في الظلام، على باب كبير أعرج، فأدار مزلاجه وفتحه. لم يخطئ ظَنُّ أوردينوف. فها هو ذا العجوز الذي يعرفه أوردينوف واقفًا أمامه يحدق إليه بنظرة ثابتة ودهشة شديدة.

قال العجوز بما يشبه الوشوشة:

- ماذا تريد؟

- أعندكم مسكن للتأجير؟

بذلك أجاب أوردينوف ناسيًا كل ما كان يريد أن يقوله تقريبًا.

ومن وراء كتف الشيخ العجوز، لمح المرأة الشابة.

لم يجب الشيخ بشيء، بل راح يعيد إغلاق الباب دافعًا معه أوردينوف.

فقالت المرأة الشابة، فجأةً، بصوت رقيق عذب:

- عندنا غرفة.

فترك الشيخ الباب.

قال أوردينوف وهو يهرع داخلًا في البيت متجهًا إلى الجميلة:

- أنا في حاجة إلى ركن، أي ركن.

ولكنه لم يلبث أن توقف مدهوشًا، حتى ليشبه أن يكون متجمدًا، حين ألقى نظرة على هذين الشخصين اللذين سيسكن عندهما. كان يمر أمام بصره مشهد صامت عجيب. إن وجه الشيخ ممتقع كوجه ميت. فمن رآه حسب أنه مريض. وهو يلقي على المرأة نظرة من رصاص، نظرة ثقيلة ثاقبة. والمرأة تشحب في أول الأمر، ولكن الدم ما يلبث أن يزدحم في وجهها، وما تلبث عيناها أن تسطعا بلمعان غريب. وها هي ذي تقود أوردينوف إلى الغرفة الأخرى.

المنزل يتألف كله من حجرة واسعة يقسمها حاجزان إلى ثلاثة أقسام. فمن فسحة السلم يدخل المرء رأسًا إلى حجرة ضيقة مظلمة، فيواجه الباب الذي يؤدي طبعًا إلى غرفة أصحاب المنزل، وعلى اليمين غرفة للتأجير. إنها غرفة ضيقة واطئة السقف لها نافذتان صغيرتان واطئتان أيضًا، تزدحم بأشياء شتى مما يوجد في كل بيت. ولئن كانت فقيرة، فهي نظيفة على قدر الإمكان أثاثها لا يتعدى خشب أبيض وكرسيَّين عاديَّين جدًا ومقعدَّين ضيقَّين وضعا في جهتَّي الغرفة على طول الجدار. وقد علقت في الزاوية أيقونة كبيرة ذات تاج مذهب، يشتعل أمامها سراج. وهناك مدفأة روسية ضخمة غليظة يطل نصفها على هذه الغرفة ويطل نصفها الآخر على حجرة المدخل.

واضح أنه ليس في الإمكان أن يعيش في هذا المنزل ثلاثة أشخاص.

بدأت المساومة على الأجر ولكن بغير تسلسل في الأفكار، حتى يكاد لا يفهم بعض عن بعض شيئًا. وكان أوردينوف يسمع خفقان قلب المرأة الشابة وهو على بعد خطوتين منها. كان يرى أنها ترتجف انفعالًا، بل وخوفًا. وتم الاتفاق على الأجر أخيرًا.

قال الفتى إنه سيسكن في الغرفة فورًا، ونظر إلى صاحب المنزل. كان الشيخ واقفًا أمام الباب، لا يزال شاحب الوجه، غير أن ابتسامة رقيقة بل وواجمة كانت تطوف على شفتيه. فما إن إلتقى بنظر أوردينوف حتى عاد يعبس مقطبًا حاجبيه.

سأل الشيخ الفتى فجأةً بصوت عالٍ وكلام موجز، وهو يفتح باب حجرة المدخل:

- أعندك جواز سفر؟

فأجابه الفتى بشيء من الدهشة:

- نعم.

قال الشيخ:

- من أنت؟

فأجاب الفتى بلهجة هي لهجة الشيخ نفسها:

- فاسيلي أوردينوف. متعلم. لا أعمل في مكان، وإنما أهتم بشؤوني.

قال الشيخ:

وأنا كذلك اسمي إيليا مورين، بورجوازي. هل يكفيك هذا؟ هيا....

وما هي إلا ساعة حتى كان أوردينوف في مسكنه الجديد. ولم تقل دهشته من هذا التغير عن دهشة الألماني الذي كان قد أخذ يخشى هو وابنته تينيشن أن يكون المستأجر الجديد قد دبر لهما مكيدة من المكائد.

أما أوردينوف فإنه لم يكن يفهم كيف وقع هذا كله، ولا كان يريد أن يفهم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

2

بَلَغ خفقان قلب أوردينوف من القوة أنَّ بصره اضطرب ورأسه أصابه دوار. وأخذ أوردينوف يرتب أشياءه الضئيلة في مسكنه الجديد ذاهلاً عن نفسه، يعمل كما تعمل آلة. فضَّ صرة تضم أشياء مختلفة، ثم فتح صندوق كتب فنضَّد الكتب على الطاولة، ولكن هذا العمل لم يلبث أن ثقل عليه. إن صورة المرأة الشابة هي التي هزَّ لقاؤها كيانه كله، وبثَّ فيه اضطرابًا شديدًا، ما تنفك تسطع أمام عينيه... إن إيمانًا كبيرًا وحماسةً لا تقاوم يدخلان الآن حياته، بينما يخيم على أفكاره ظلام، وتهوي نفسه إلى القلق والاضطراب.

تناول جواز سفره ومضى يأخذه لصاحب البيت آملًا أن يبصر المرأة الشابة. ولكن مورين لم يكد يشق الباب شقًا، فيتناول منه الورقة، ويقول له: «أرجو لك حياة هادئة»، ثم يغلق الباب. إن شعورًا مزعجًا يعتري أوردينوف إن رؤية هذا الشيخ تثقل على صدره، لا يدري لماذا! إن في نظرته شيئًا من احتقار ومن شر. ولكن الشعور المزعج لم يلبث أن تبدد. إن أوردينوف يعيش منذ ثلاثة أيام في ما يشبه الزوبعة، إذا قيست حياته الآن بحياة الهدوء التي كان يحياها من قبل، ولكنه لا يستطيع أن يفكر، بل هو يخشى أن يفكر. إن كل شيء قد اختلط واضطرب في وجوده. أحس إحساسًا مبهمًا بأن حياته قد انشطرت شطرين. فهناك الآن صبوة وحيدة، هناك رنو وحيد استولى على كيانه كله، فما من فكرة أخرى لها عليه سلطان.

عاد أوردينوف إلى غرفته مدهوشًا، وهناك قرب المدفأة، حيث يهيأ الطعام، كانت تعمل امرأة عجوز قصيرة متغضنة. إنها تبلغ من القذارة، وإن ملابسها تبلغ من الرثاثة والوساخة أن منظرها يبعث الشفقة حقًا. ولكن في وجهها خبثًا وشرًا وهي تدمدم بين أسنانها ببعض الكلام من حين إلى حين. إن هذه العجوز هي خادمة أصحاب البيت، حاول أوردينوف أن يعقد معها حديثًا، ولكنها اعتصمت بالصمت، عن مكر واضح. حتى إذا حانت ساعة الغداء أخرجت من المدفأة حساء كرنب وفطائر لحم فحملتهما إلى أصحاب البيت، ثم قدمت لأوردينوف هذا الطعام نفسه. وبعد الغداء ساد المنزل صمت كأنه صمت الموت. تناول أوردينوف كتابًا، فظل يقلب صفحاته محاولًا أن يفهم ما سبق أن قرأه مرارًا دون أن يظفر بطائل، فثارت ثائرته ورمى الكتاب، وعاد يحاول أن يضع أشياءه في مواضعها. ثم مشطَّ شعره، وتدثر بمعطفه، وخرج.

ظل يضرب في خارج البيت على غير هدى، لا يعرف الطريق الذي يسير فيه محاولًا طوال الوقت أن يركز أفكاره المشتتة ما أمكن التركيز، وأن ينظر في وضعه قليلًا. ولكن هذا الجهد لم يزد على أن سبب له عذابًا. إنه يشعر ببرد ثم يشعر بحَرّ، وإن قلبه ليبلغ من شدة الخفقان في بعض اللحظات أنه يضطر إلى الاتكاء على جدار. همس يقول محمومَ الشفتين مرتعشًا دون أن يفكر فيما يقول: «لا... الموت خير من هذا... الموت أفضل من هذا!».

ولبث يمشي زمنًا طويلًا. فلما أحسَّ أخيرًا أنه ابتل حتى العظام، ولما لاحظ لأول مرة أن المطر كان يهطل غزيرًا، قفل راجعًا إلى البيت.

حين أصبح على مقربة من البيت لمح البواب، بدا له أن التتريّ يحدق إليه بشيء من حب الاستطلاع، ولكن حين لاحظ التتري أن أوردينوف ينظر إليه تابع سيره.

قال له أوردينوف وقد لحق به:

- نهارك سعيد. ما اسمك؟

فأجاب النتري كاشفًا عن أسنانه:

- أنا بوّاب، واسمي بوّاب.

- أأنت في هذا المنزل منذ زمن طويل؟

- نعم منذ زمن طويل.

- هل صاحب بيتي بورجوازي؟

- هو بورجوازي إذا كان يقول ذلك.

- ماذا يعمل؟

- إنه مريض، يعيش، ويصلي... هذا كل شيء..

- وهذه المرأة زوجته؟

- أي امرأة؟

- المرأة التي تعيش معه؟

- هي زوجته إذا كان يقول ذلك. وداعًا يا سيدي!

قال التتري ذلك ملامسًا طاقيته ودخل بيته.

عاد أوردينوف إلى مسكنه. فتحت له العجوز الباب وهي تتمتم ببعض الكلام، ثم أقفلته بالمزلاج، ورجعت تستقر على المدفأة حيث تكمل حياتها. كان الليل يهبط. مضى أوردينوف يجيء بنوره فلاحظ أن باب صاحبَي البيت مقفل بالمفتاح. نادى العجوز. كانت العجوز تحدق إليه من فوق المدفأة مسندة رأسها إلى كوعها وكأنها تتساءل عمّا عساه يستطيع أن يفعل قرب قفل غرفة صاحبَيّ البيت. ودون أن تقول له شيئًا، رمت إليه علبة كبريت.

رجع إلى غرفته، وأخذ للمرة المائة يرتب أشياءه وكتبه، ولكنه شيئًا فشيئًا، دون أن يدري ماذا يحدث له، رأى نفسه يجلس على المقعد، وخيل إليه أنه ينام. وكان يثوب إلى نفسه في بعض اللحظات، فيدرك أن نومه ليس نومًا، بل هو نوع من غيبوبة مرضية أليمة. سمع الباب يُفتح ثم يُغلق فقدر أنهما صاحبا البيت عائدان من صلاة الغروب. فخطر بباله أن عليه أن يذهب إليهما ليجيء من عندهما بشيء. فنهض عن مكانه يريد أن يذهب إليهما، ولكنه ترنَّح وسقط على كومة من حطب كانت المرأة

العجوز قد ألقتها في وسط الغرفة. وعندئذ أغميَّ عليه تمامًا. فلما أفاق بعد فترة وفتح عينيه لاحظ مدهوشًا أنه راقد على نفس المقعد الطويل العتيق، مرتدٍ ثيابه كاملة، وأن وجه امرأة بارع الجمال، مبللًا بدموع عذبة حلوة كدموع أم كان يميل عليه حانيًا عاطفًا شديد الانتباه. وشعر أن مخدة توضع تحت رأسه، وأنه يُدثَّر بشيء دافىء، وأن يدًا رقيقة تمسح جبينه المحترق. أراد أن يقول شكرًا، أراد أن يتناول هذه اليد الرقيقة، أن يقرِّبها من شفتيه الجافتين، أن يبللها بدموعه، أن يقبلها إلى الأبد... أراد أن يقول أشياء كثيرة أيضًا... ولكن ماذا؟ إنه لا يدري هو نفسه. أراد في تلك اللحظة أن يموت... كانت يداه كالرصاص ثقلًا، وظلتا ساكنتين جامدتين لا تتحركان. وخيِّل إليه أنه أصبح أخرس. لكنه يحس بدمه يتدفق في جميع شرايينه تدفُّقا قويًا كأنه يريد أن ينهضه عن مرقده. ناوله أحد ماء... ثم أغميَّ عليه.

استيقظ في الصباح، في الساعة الثامنة من الصباح. كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من خلال الزجاج الضارب إلى الخضرة، الوسخ، زجاج نافذتَي غرفته. إن إحساسًا عذبًا يسري في جميع أعضاء المريض. كان هادئًا ساكنًا سعيدًا غاية السعادة. وخيِّل إليه أن أحدًا كان منذ برهة ساهرًا عليه. استيقظ باحثًا من حوله عن ذلك الإنسان الذي لا يراه. كان يود أن يعانق صديقًا، أن يقول لأول مرة «صباح الخير، صباح الخير يا صديقي».

قال صوت امرأة عذب رقيق:

- نمتَ نومًا طويلًا.

فاستدار أوردينوف. إن وجه الجارة الجميلة يبتسم ابتسامة فاتنة، مضيئة كالشمس، ويميل عليه.

قالت:

- طال مرضك. كفاك هذا. انهض الآن. لماذا تعذّب نفسك هذا التعذيب؟ إن الحرية أشهى من الخبز، وأبهى من الشمس. انهض يا صديقي انهض...

تناول أوردينوف يدها، وشدَّ عليها شدًا قويًا خيِّل إليه أنه ما يزال يحلم.

- انظر. لقد أعددت لك شايًا. هل تريد قليلًا من الشاي؟ اشرب شيئًا من الشاي. سينفعك شرب الشاي. أعرف هذا، فقد مرضتُ أنا أيضًا.

- نعم نعم اسقني شيئًا.

كذلك قال أوردينوف بصوت منطفئ.

ونهض. كان لا يزال ضعيفًا جدًا. إن قشعريرة تسري في ظهره. وإنه يحس بأوجاع في جميع أعضائه، كأنَّ أعضائه مكسَّرة محطمة. غير أن في قلبه نورًا، وأشعة الشمس تنعشه وتبثُّ في روحه فرحًا رائعًا. إنه يشعر أن حياة جديدة، قوية، خفية عن الأبصار قد بدأت فيه. وكان يشعر بشيء من دوار.

قالت المرأة الشابة:

- هل اسمك فاسيلي؟ لعلني أخطأت السمع، ولكن رب الدار سماك بهذا الاسم أمس.

- نعم، فاسيلي. وأنت ما اسمك؟

قال أوردينوف ذلك وهو يقترب منها ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه.

وترنّح، فأمسكته من يده وضحكت، ثم قالت له وهي تحدق إلى عينيه الزرقاوين الصافيتين:

- أنا؟ كاترين.

وتماسكا يدًا بيد.

سألته أخيرًا:

- هل تريد أن تقول لي شيئًا؟

فأجابها أوردينوف بقوله:

- لا أدري.

وأظلم بصره.

- ألا ترى الحالة التي أنت فيها؟.. حسبك هذا يا طائري حسبك. لا تعذب نفسك مزيدًا من التعذيب. اقعد هنا، أمام المنضدة قبالة الشمس امكث هنا هادئًا، ولا تتبعني (أضافت قولها هذا إذ لاحظت أن الفتى يهم أن يتحرك ليمسك بها). سأعود فورًا. ستراني كثيرًا.

وعادت بعد دقيقة تحمل الشاي، فوضعت الشاي على المائدة وقعدت أمام أوردينوف.

قالت:

- خذ. اشرب. هل بك صداع؟

- لا... زال الصداع الآن. لا أدري، قد يكون بي صداع. لا أريد... كفى كفى! لا أعرف ما الذي بي.

قال ذلك مضطربًا أشد الاضطراب بعد أن استطاع أخيرًا أن يتناول يد كاترين... وأضاف يقول لاهثًا من فرط الحساسية، وكأنه ينتزع كلامه من قلبه، بينما يملأ النشيج حلقه:

- على عينيَّ غشاوة... عيناي مبهورتان... إنني أنظر إليك نظرتي إلى الشمس.

- يا صديقي، أنت إذن لم تعِش في كنف إنسان شهم، أنت وحيد، وحيد. أليس لك أقرباء؟

- ليس لي أحد. أنا وحيد. ليس لي أحد. آ... تحسنت حالي الآن. أنا الآن بخير.

قال أوردينوف ذلك هاذيًا، وكان يرى الغرفة تدور من حوله.

قالت بعد لحظة صمت:

- أنا أيضًا ظللت وحيدة عدة سنين. ما أغرب نظرتك إليَّ!...

- ماذا في نظرتي؟

- إنك تنظر إليَّ نظرة من تحييه رؤيتي وتبث الدفء في قلبه! هل تعلم؟ إنك تنظر إليَّ نظرة من يشعر بحب... أما أنا فقد خفق قلبي لك منذ أول كلمة. إذا مرضت فسوف أعنى بك. ولكن لا تمرض لا لا، حين ستتشفى من مرضك سنعيش أخًا وأختًا. هل تريد؟ صعب أن يصبح للمرء أخت إذا لم يكن الرب قد وهب له أختًا...

قال أوردينوف بصوت واهن:

- من أنتِ؟ من أين أنتِ؟

- أنا لست من هنا ولكن فيم يعنيك هذا؟ هل تعلم؟ يُحكى أن اثني عشر أخًا كانوا يعيشون في غابة مظلمة... وحدث أن ضلت فتاة في هذه الغابة... فوصلت إلى منزلهم، فرتبت كل شيء فيه، وشملتهم بحبها جميعًا. عاد الأخوة، فعرفوا أن أختًا مرت بمنزلهم في النهار.. نادوها. جاءت إليهم، سموها جميعهم أختًا. فكانت لا تفرق بينهم، بل تعاملهم معاملة واحدة. هل تعرف هذه الحكاية؟ أجاب أوردينوف بصوت خافت:

- نعم أعرفها.

- الحياة متعة. أيسرُّك أن تحيا؟

- نعم نعم... أن أحيا طويلًا... طويلًا...

كذلك أجاب أوردينوف فقالت كاترين ساهمة:

- لا أدري إنني أتمنى الموت أيضًا الحياة متعة... ولكن... أواه! ما لوجهك يشحب لونه من جديد؟

- بي دوارًا.

- انتظر. سأجيئك بفراشي، إنه خير من هذا، وسأجيئك بمخدة أخرى، وسأهيئ سريرك. وسوف تنام، فتراني في نومك، فيذهب مرضك... عجوزتنا مريضة هي أيضًا...

كانت تقول هذا الكلام وهي تهيئ السرير، وتلقي من فوق كتفها نظرة على أوردينوف من حين إلى حين.

قالت وهي تدفع صندوق الكتب:

- عندك كتب.

واقتربت من أوردينوف، فتناولت يده اليمنى، وقادته نحو السرير، فأضجعته، وأحاطت به، قالت وهي تهز رأسها واجمة ساهمة:

- هل تحب قراءة الكتب؟

- نعم.

قال أوردينوف ذلك وهو لا يدري أنائمٌ هو أم يقظ، قال ذلك، وهو يشد على يد كاترين شدّا قويًا ليتحقق من أنه ليس بنائم.

- عند سيدي كتب كثيرة أيضًا. يقول إنها كتب رائعة. إنه يقرأ لي دائمًا في أحد هذه الكتب. سأريك هذا الكتاب، فتقول لي ماذا فيه...

- نعم سأقول لك...

قال أوردينوف ذلك وهو يتفرس فيها.

سألته بعد صمت قصير:

- هل تحب الصلاة؟ أتعلم؟ إنني أشعر بخوف، أشعر بخوف من كل شيء، دائمًا...

لم تكمل كاترين جملتها، وقد لاح عليها أنها تفكر في شيء ما.

حمل أوردينوف يدها إلى شفتيه.

- لماذا تقبّل يدي؟

قالت ذلك وقد احمرَّ خداها قليلًا.

ثم أضافت ضاحكة وهي تمد إليه يديها كلتيهما:

- هيا... قبلهما.

ثم سحبت إحداهما ووضعتها على جبينه المحترق. ثم أخذت تلاعب شعره. إن حمرة وجهها تشتد. وأخيرًا قعدت على الأرض قرب السرير. وأسندت خدها على خد الفتى. إن أنفاسها الحرَّى تهب على وجهه...

وشعر أوردينوف فجأة بدموع سخية تسقط على خده ثقيلةً كالرصاص، كانت كاترين تبكي. صار أوردينوف يزداد ضعفًا ووهنًا. أصبح منذ الآن لا يستطيع أن يرفع يديه. وفي هذه اللحظة دوت ضربة في الباب. وصرَّ المزلاج. استطاع أوردينوف أن يميِّز صوت رب المنزل آتيًا من الغرفة المجاورة. ثم سمع كاترين تنهض فتتناول كتابها دون تعجل ودون إصغاء، ورآها بعد ذلك ترسم عليه إشارة الصليب وهي تتصرف. أغمض عينيه. وفجأة أحس بقبلة حارة طويلة تحرق شفتيه، وشعر كأن طعنة سكين تنفذ في قلبه. أطلق صرخة ضعيفة، ثم أغمي عليه.

بعدئذ بدأت بالنسبة إليه حياة غريبة عجيبة.

ففي بعض اللحظات ينبع في فكره شعور غامض مبهم بأنه قد حكم عليه أن يعيش حلمًا طويلًا لا نهاية له، مليئًا باضطرابات غريبة وصراعات وآلام عقيمة؛ فيشعر بذعر شديد، ويحاول أن يتمرد وأن يثور على هذا القدر الذي يثقل صدره. ولكن حين يبلغ الصراع أشد لحظاته حدة وضراوة، يحس بقوة مجهولة تضربه من جديد،

فيدرك إدراكًا واضحًا كيف أنه يفقد ذاكرته مرةَ أخرى، وظلامًا رهيبًا، لا مخرج منه، ينتشر أمامه من جديد فيندفع إليه صارخًا صرخة قلق ويأس. وفي لحظات أخرى يشعر بسعادة عنيفة مسرفة في العنف، سعادة ساحقة؛ يحدث ذلك حين تزداد الحيوية في الكيان الإنساني كله إلى غير حد، حين يصبح الماضي أوضح وتتراجع أصداء انتصار الفرح، حين يحلم المرء بمستقبل مجهول، حين يهبط على النفس أمل رائع كالندى المنعش، حين يشتهي المرء أن يصرخ من فرط الحماسة، حين يحس أن الجسد عاجز أمام كثرة الأحاسيس وغزارتها ووفرتها، حين ينقطع خيط الوجود ويعلو في الوقت نفسه هتاف التهليل لانبعاث الحياة الجديدة.

وكان أوردينوف يرتدّ في لحظات أخرى إلى خدره، وعندئذ فإن كل ما حدث له في الأيام الأخيرة يمر في خاطره من جديد مرور زوبعة. ولكن المنظر يعرض له حينذاك في مظهر غريب سرّي.

وكان في بعض الأحيان ينسى أثناء مرضه ما حدث له، ويستغرب أن لا يجد نفسه في مسكنه القديم عند صاحبة البيت القديمة؛ ويدهشه أن لا يرى العجوز تقترب، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائمًا، من المدفأة شبه المنطفئة التي تنير بضيائها الضعيف المهتز المترجِّح كل الركن المظلم من الغرفة، وأنها لا تدفئ يديها المعروقتين المرتجفتين على الموقد الذي خبت ناره، كما ألفت أن تفعل ذلك دائمًا، ملقيةً من حين إلى حين نظرة دهشةٍ على نزيلها العجيب الذي كانت تعده مجنونًا بعض الشيء من طول ما يكبُّ على القراءة.

وكان في لحظات أخرى يتذكر أنه أبدل مسكنه، ولكن كيف تم ذلك؟ إنه لا يدري كيف تم ذلك، رغم كل ما يبذله من جهود عنيفة عنيدة في سبيل أن يفهم... أما أين وماذا وما هذا الذي يعذبه ويلقي في نفسه هذه النار التي لا تطاق، هذا اللهب الذي يخنقه ويحرق دمه، فذلك ما لم يكن في إمكانه أن يعرفه. وها هو ذا يعود إلى النسيان من جديد، فلا يتذكر شيئًا البتة. وكثيرًا ما كان يقبض قبضًا شرِهًا على طيف من الأطياف. وكثيرًا ما كان يسمع وقع خطوات خفيفة قرب سريره، ودمدمة أصوات عذبة مهدهدة رقيقة كأنها موسيقى. وهذه أنفاس لاهثة رطبة تمرّ على وجهه، فيهتز كيانه كله حبًا. وهذه دموع محرِقة تسيل على خديّه الملتهبين، وهذه قبلة طويلة رقيقة تنصبُّ فجأة على شفتيه. إن حياته كلها تنطفئ عندئذ في عذاب لا نهاية له؛ ويبدو له أن الوجود كله، والكون كله يتوقفان من حوله، يموتان من حوله قرونًا برمتها، وأن ليلًا طوله ألف سنة يمتد عليه...

وهو بعض الأحيان يعيش مرة أخرى السنين الحلوة من طفولته الأولى، فأفراحها الصافية وسعادتها التي لا حدود لها، بأولى مشاعر الدهشة الفرحة، بجمهرة الأرواح المضيئة تخرج من كل زهرة يقطفها، وتمضي تلعب معه في السهل الأخضر المعشب أمام البيت الصغير الذي تحيط به أشجار الأكاسيا، ويبتسم له عند بحيرة البلور التي يقضي على شاطئها ساعات طويلة مصغيًا إلى خرير أمواجها؛ ومصيخًا بسمعه كذلك إلى اصطفاق أجنحة تلك الأرواح التي تنشر على مهده الصغير أحلامًا زاهية الألوان كقوس قزح بينما تكون أمه، الحانية على هذا السرير، تقبِّله وتنوِّمه مغنيةً له من جديد فيقلقه أشد القلق ويرعبه بفزع ليس كفزع

الأطفال، ويسكب في نفسه أول سمّ بطيء من سموم الألم والدموع. إنه يشعر شعورًا مبهمًا بأن الشيخ يقبض بسلطانه على جميع سنيّه المقبلة، فها هو ذا يرتعش أمامه ولا يستطيع أن يحول عنه بصره. إن الشيخ الخبيث الشرير يلاحقه في كل مكان ويطارده أينما يذهب. يظهر له ويطل عليه ويهدده برأسه من فوق كل دغل في الغابة الصغيرة. يضحك مقهقهًا ويعاكسه ويناكده؛ يتجسد في كل دمية من الدمى التي كان يلعب بها إبّان طفولته؛ يكشِّر له، ينفجر ضاحكًا في يديه، كجنّي خبيث شرير من الجن التي تسكن جوف الأرض. ينبثق من كل كلمة من كلمات كتاب النحو الذي يقرأ الصبي سطوره، ينبثق مصعِّرًا وجهه عن أسنانه... فإذا نام الصبي جلس الشيخ قرب سريره... يطرد أسراب الأرواح المضيئة التي ترفرف حول مهده بأجنحتها التي هي من ذهب وياقوت. وهو يدفع عنه، إلى الأبد، أمه المسكينة؛ ويظل ليلة بكاملها يهمس له بقصة رائعة لا يفهمها قلب طفل، ولكنها تبث فيه اضطرابًا ورعبًا وهَوْلًا، وتشعل قلبه بهوى جامع كيّس كهوى الأطفال. والشيخ الشرير لا يسمع نحيبه ونشيجه، ولا يصغي إلى رجائه ودعائه، ويمضي يحدثه ثم يحدثه إلى أن يغمى عليه.

ويستيقظ الطفل رجلًا. لقد انقضت سنين طويلة دون أن يدرك ذلك. وفجأة يعرف وضعه على حقيقته، ويفهم أنه وحيد وغريب عن الكون كله. وحيد بين أناس أشرار، أناس مقلقين، أعداء يتجمعون ويتهامسون في أركان غرفته المظلمة، ويومئون برؤوسهم إلى العجوز القاعدة قرب النار تدفئ يديها الواهيتين العجفاوين، وتومئ هي لهم إليه. إن نفسه مضطربة أشد الاضطراب، يريد أن يعرف ما هؤلاء الناس، ولماذا هم هنالك، ولماذا هو في غرفته. ويقدِّر أنه وقع في مغارة لصوص من قطاع الطرق، وأن قوة جبّارة مجهولة هي التي قادته إلى هذه المغارة، قبل أن يفحص هؤلاء السكان وهؤلاء الناس.

تستبد به الخشية منذ الآن. وفجأة، في وسط الليل، في الظلام، يعود يسمع القصة الطويلة بصوت خافت، هي امرأة عجوز تتكلم برفق، هازَّة رأسها الأبيض على حزن، أمام النار التي تنطفئ. ويقبض عليه الهول والرعب من جديد. الحكاية تشتد حميًّاها أمامه، وهذه وجوه وصور تتضح لبصَره. وها هو يرى أن كل شيء، تهاويله المبهمة في أيام طفولته، أفكاره وأحلامه جميعها، ما عرفه من الحياة كلها، ما قرأه في الكتب كافة، ما نسيه منذ زمن بعيد، ذلك كله ينبعث الآن ويتجسد وينتصب أمامه صورًا ضخمة، ويسير ويرقص في حلقة حوله. جنائن بديعة تنبت أمام بصره، مدن برمتها تتهاوى خرائب وركامًا، مقابر ترد إليه موتاها أحياء يسعون. أمم وشعوب تظهر وتكبر وتموت على مرأى منه. كل فكرة وكل حلم يتجسّد الآن حول سريره، سرير المريض، تجسده حين ولد؛ فهو لا يحلم الآن بمكان من غير لحم ودم، بل بعوالم بأسرها. وهو نفسه الآن يجرفه إعصار، كذرَّة غبار، في هذا العالم اللانهائي، هذا العالم الغريب الذي لا مخرج له. وهذه الحياة كلها، باستقلالها المتمرد، تدفعه دفعًا، وتلاحقه بسخريتها الأبدية الحقود التي لا يشفى لها غليل.

أحس أنه يموت، وأنه يتهاوى ترابًا إلى الأبد، بغير انبعاث ممكن. أراد أن يهرب ولكن ليس في الكون كله ركن يختبئ فيه. ويستولي عليه أخيرًا ذعر رهيب، فيصرخ، ويستيقظ...

إن عَرقًا باردًا كالثلج يغطي جسمه. ومن حوله يخيّم سكون كسكون الموت في ليل عميق. ومع ذلك يتراءى له أن حكايته العجيبة ما تزال مستمرة في مكان ما؛ أن صوتًا أجش يشرع في حديث طويل عن الموضوع الذي يعرفه. إنه يسمع كلامًا عن غابات مظلمة، ولصوص خارقين، وعن فتى باسل شجاع يشبه أن يكون ستنكا رازين (1) نفسه، وعن سكارى مرحين فرحين، وعن رجال يجرّون المراكب، وعن فتاة جميلة، وعن نهر الفولجا. أهذا حلم؟ أهو يسمع هذا حقًا؟

وظل راقدًا مدة ساعة، مفتّح العينين، لا يحرك عضوًا، غارقًا في خدر رهيب. وأخيرًا نهض محاذرًا، فأدرك على فرح أن المرض الفظيع لم يجهز على جميع قواه. تبدَّد الهذيان. وبدأ الواقع.

لاحظ أنه ما يزال مرتديًا ثيابه كما كان أثناء حديثه مع كاترين، فقدَّر أنه لم ينقضِ إذن وقت طويل على تركها إياه. إن نار العزيمة تجري في عروقه. وإنه لكذلك إذا بيده تلمس عرضًا، مسمارًا كبيرًا مغروزًا في الحاجز الذي وُضع سريره بحذائه. أمسك المسمار و تعلق به بكل جسمه، فوصل بذلك إلى شق يتسلل منه إلى غرفته شعاع ضئيل من نور. وضع عينه على هذا الشق وحبس أنفاسه، وأخذ ينظر.

في ركن من الغرفة الصغيرة التي يسكنها صاحبا البيت، كان هنالك سرير، وأمام السرير مائدة فُرشت بسجادة، وعلى المائدة كتب كثيرة من حجم كبير وشكل قديم، كتب مجلدة تذكّر بكتب الطقوس الدينية. وفي زاوية من الزوايا أيقونة معلقة لا تقلّ قدمًا عن الغرفة، وأمام الأيقونة سراج مشتعل. كان الشيخ مورين، المريض، راقدًا على السرير. كان يبدو عليه أنه يعاني آلامًا شديدة. إنه شاحب شحوب ميت. وكان مدثرًا بغطاء من فراء؛ وعلى ركبتيه كتاب مفتوح. وكانت كاترين مستلقية على مقعد قرب السرير، محيطة صدر الشيخ بإحدى ذراعيها، مسندة رأسها على كتفه. كانت تحدق إليه بعينين منتبهتين، طفوليَّتين، مدهوشتين، وتبدو مصغية بشراهة شديدة ونهم غريب إلى ما كان يقصه عليها مورين. وفي بعض اللحظات يعلو صوت القصّاص، وينتعش وجهه الشاحب، ويتقطب حاجباه، وتسطع عيناه، فيصفر وجه كاترين خوفًا وانفعالًا، فيظهر في وجه الشيخ عندئذ شيء يشبه الابتسام، فإذا بكاترين تأخذ تبتسم في هدوء ورفق هي أيضًا.

وتترقرق في عينيها دموع أحيانًا. فيأخذ الشيخ يلاعب رأسها عندئذ كما يلاعب رأس طفلة، فتعانقه بمزيد من القوة بذراعها العارية الناصعة كالثلج؛ وبمزيد من الحب أيضًا تميل على صدره.

تساءل أوردينوف أليس ما يراه الآن تتمة حلمه؟ بل لقد أيقن من ذلك. غير أن دمه ازدحم في رأسه، وأخذت شرايينه وصدغاه تنبض نبضًا يبلغ من القوة أنه أوجعه.

أرخى المسمار، ونزل عن السرير، وتقدم يسير مترنِّحًا كمن يمشي في نومه، لا يفهم هذا الاهتياج الذي اشتعل كحريق في دمه. فلما وصل إلى باب غرفة ربّ المنزل دفعه دفعًا قويًا عنيفًا، فسقط المزلاج الصدئ؛ وفي غمار هذه الجلبة وهذه الضجة وجد أوردينوف نفسه في وسط الغرفة.

ورأى أوردينوف كيف ارتعشت كاترين فجأة، وكيف إلتمعت عينا الشيخ تحت حاجبيه العابسين المقطبين إلتماعًا شريرًا، وكيف شوَّه الحنق والغيظ وجهه تشويهًا على حين بغتة. ثم إذا بالشيخ يتناول بيده المرتجفة البندقية المعلقة بالجدار، فيرى أوردينوف أنبوبها ساطعًا تسدده إلى صدره يد مترددة راعشة غضبًا... وتنطلق الطلقة.. فتجاوبها صرخة وحشية لا يكاد يكون فيها شيء إنساني... حتى إذا تبدد الدخان، رأى أوردينوف منظرًا مروعًا فظيعًا.

أخذ جسم أوردينوف يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ومال على الشيخ المتهاوي على الأرض وقد تشنج وجهه وأخذ الزبد يخرج من بين شفتيه المكشرتين. أدرك أوردينوف أن الشيخ المسكين قد انتابته نوبة صرَع. فهب يسعفه مع كاترين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3

قضى أوردينوف ليلة سيئة. فلما طلع الصباح خرج من المنزل رغم ضعفه ورغم الحمى التي لم تزاوله. فإلتقى في الفناء بالبواب مرة أخرى. ما إن رآه التتري من بعيد حتى نزع قبعته يحييه، وينظر إليه مستطلعًا؛ ثم لم يلبث أن تناول مكنسته، وأخذ يكنس الأرض ملقيًا من حين إلى حين نظرة سريعة على أوردينوف الذي كان مقبلًا بخطى بطيئة.

سأله أوردينوف:

- هيه! ألم تسمع شيئًا هذه الليلة؟

- بلى! سمعت.

- من هذا الرجل؟ من هو؟

- أنت استأجرت، فأنت تعرف. أما أنا فأجنبي.

فصاح أوردينوف خارجًا عن طوره وقد استبد به هياج مرضي:

- أتراك ستتكلم في يوم من الأيام؟

قال البواب:

- ولكن ماذا فعلت أنا؟ إنها خطيئتك. أنت أرعبتهم. صانع التوابيت، تحت، أطرش. ومع ذلك سمع كل شيء. وامرأته، وهي طرشاء، سمعت كل شيء أيضًا. وحتى في الفناء الثاني، البعيد مع ذلك سُمع كل شيء. هذا ما وقع... سأذهب إلى مفوض الشرطة.

- بل أذهب إليه أنا.

قال أوردينوف ذلك واتجه نحو باب الفناء.

- لك ما تشاء... ولكنك أنت الذي استأجرت! سيدي، سيدي! انتظر!...

نظر أوردينوف إلى البواب الذي لمس طاقيته احترامًا.

سأله أوردينوف:

- ماذا؟

- إذا كنت ذاهبًا إلى مفوض الشرطة، فسأخبر المالك...

- ثم؟

- الأفضل أن تغادر هذا المنزل.

- ما أنت إلا غبيّ أحمق!

أراد أوردينوف أن ينصرف.

- سيدي! سيدي!

كذلك هتف البواب وهو يضع يده مرة أخرى على طاقيته، ويظهر أسنانه ابتسامًا من قبيل التودد وأردف يقول:

- سيدي! لماذا طردت إنسانًا مسكينًا؟ إن طرد مسكين إثم لا يرضى عنه الرب.

- اسمع... خذ هذا... من هو هذا الرجل؟

- من هو؟

- نعم.

- سأقول لك من هو، حتى دون أن تنقدني مالًا.

تناول البواب ،مقشَّته فكنس بها كنستين، ثم توقف، فنظر إلى أوردينوف بانتباه مصطنعًا خطورة الشأن:

- أنت طيب يا سيدي، ولكن إذا كنت لا تريد أن تعيش مع إنسان صالح، فلك ما تشاء... ذلك ما أقوله لك...

قال التتري ذلك وألقى على أوردينوف نظرة تفيض بمزيد من التعبير، ثم طفق يكنس كأنه غاضب، وأخيرًا اصطنع هيئة من أنجز أمرًا هامًا، اقترب من أوردينوف كمن يريد أن يفضي إليه بسر، وقال معبرًا بحركة من وجهه:

- هو هكذا..

- ماذا؟ ما معنى هذا؟

- ليس له عقل!

- ماذا؟

- نعم. ذهب عقله.

كذلك ردَّد التتري بلهجة فيها مزيد من السر أيضًا. ثم أضاف:

- إنه مريض كان يملك سفينة كبرى، وسفينة ثانية، وثالثة. كان يطوف نهر الفولجا. أنا من الفولجا. وكان يملك مصنعًا أيضًا. ولكن الحريق إلتهم كل شيء. ففقد الرجل عقله...

- أهو مجنون؟

قال التتري ببطء:

- لا.. لا.. ليس بمجنون.. هو إنسان روحاني.. يعرف كل شيء.. قرأ كتبًا كثيرة.. وهو يتنبأ للناس بالحقيقة كاملة؛ يجيئه أحدهم، فينقده روبلين، ويجيئه آخر فينقده ثلاثة روبلات، أو أربعين روبلًا، فيقرأ هو في الكتاب فيرى الحقيقة كلها. ولكن على شرط أن توضع الدراهم فوق المائدة، أما من دون دراهم، فلا شيء.

وهنا أطلق التتري ضحكة فرحة، بعد أن أوغل في الكلام على شؤون مورين.

قال أوردينوف:

- ماذا؟ أهو إذن ساحر؟

قال البواب وهو يهز رأسه:

- همم.. إنه يقول الحقيقة إنه يصلّي.. يصلّي كثيرًا.. وأحيانًا تصيبه لوثة..

وكرر التتري حركة رأسه المعبِّرة.

وفي هذه اللحظة نادى أحدهم البواب في الفناء الآخر، ثم ظهر شيخ قصير القامة يرتدي معطفًا من جلد الخروف. كان الشيخ يسير بخطى مترددة وهو يتنحنح مطرقًا إلى الأرض مدمدمًا ببعض الكلام. كان الشيخ القصير يبدو مرتدًا إلى الطفولة.

- المالك، المالك!

كذلك همس البواب بسرعة، وأومأ لأودرينوف بحركة طفيفة من رأسه، ثم اندفع مقبلًا على الشيخ خالعًا طاقيته.

خيل إلى أوردينوف أنه سبق أن رأى هذا الوجه منذ فترة قصيرة في مكان ما. ولكنه إذ لم يرَ في ذلك ما يستغرب، خرج من الفناء، وهو يشعر أن هذا البواب رجل وغد دنيء من أحقر طراز. قال لنفسه:

«يا للنذل! إنه يساومني... الله يعلم ماذا يجري هنا!؟».

حين قال أوردينوف هذه الكلمات كان قد وصل إلى الشارع. وشيئًا فشيئًا احتكرت ذهنه أفكار أخرى. إن نفسه تفيض بمشاعر أليمة. النهار أشهب بارد. الثلج يتساقط. وأحس الفتى بالحمى تنهشه من جديد، كان يشعر أيضًا بأن الأرض تنسلّ تحت قدميه. وفجأة سمع صوتاً معروفًا له، صوتاً من مقام التينور متصنع العذوبة، مرتجفًا، مزعجًا، يحييه قائلًا: نهارك سعيد.

هتف أوردينوف:

- ياروسلاف إيلتش (2)!

كان أمام أوردينوف رجل في نحو الثلاثين من العمر، قوي البنية أحمر الخدين مربوع القامة له عينان صغيرتان مخضلتان، شهباوان، باسمتان... يرتدي... ما يرتديه ياروسلاف إيلتش دائمًا، وهذا هو يمد يده لأوردينوف بتودد كبير.

كان أوردينوف قد عرف ياروسلاف إيلتش منذ سنة على وجه الضبط، معرفة عارضة تمامًا، في الشارع تقريبًا. ومما سهل هذا التعارف، عدا المصادفة، ما يتصف به ياروسلاف إيلتش من ميل قوي إلى البحث في كل مكان عن أناس طيبين نبلاء، مثقفين خاصة، تجعلهم مواهبهم وآدابهم على الأقل، جديرين بالانتماء إلى المجتمع الراقي. ورغم أن ياروسلاف إيلتش قد وهب له صوتًا من مقام التينور متصنِّع العذوبة جدًا، حتى في حديثه مع الحميمين من أصدقائه، فلقد كان ينبعث في

صوته شيء خارق الوضوح، قوي، يفرض نفسه، ولا يطيق أية معارضة، ولعله ليس إلا ثمرة العادة.

صاح ياروسلاف إيلتش يقول فرِحًا أشد الفرح متحمسًا أصدق الحماسة:

- كيف؟ ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال أوردينوف:

- إنني أسكن في هذه الجهة.

فتابع ياروسلاف إيلتش يسأل بلهجة ما تنفك تعلو مزيدًا من العلوة.

- منذ زمن طويل؟ ثم لا أعلم أنا بذلك؟... نحن إذن جيران. إنني أعمل هنا، في هذه الدائرة. عدت من إقليم ريازان منذ شهر. ها... لقد قبضت عليك يا صديقي القديم النبيل!

قال ياروسلاف إيلتش ذلك وانفجر يطلق ضحكة لطيفة أنيسة. ثم صاح منتفخًا يخاطب شخصًا آخر:

- سيرجييف! انتظرني عند تاراسوف، وقل لهم أن لا يمسوا أكياس القمح قبل وصولي... واشحذ همة بواب أولسوفييف قليلًا. مُره أن يأتي إلى المكتب فورًا. سأكون في المكتب بعد ساعة....

فلما انتهى ياروسلاف الرقيق من إصدار أمره هذا مسرعًا، تأبط ذراع أوردينوف وقاده إلى أقرب مطعم.

قال:

- لن أكون راضيًا قبل أن نتبادل بضع كلمات على انفراد، بعد فراق طويل كل هذا الطول.

وأضاف بلهجة تشبه أن تكون احترامًا وهو يخفض صوته خفضًا غريبًا:

- ماذا تعمل الآن؟ أما زلت تعمل في العلوم؟

أجاب أوردينوف وقد راودته فكرة طيبة جدًا:

- نعم، كما كنت دائمًا.

فقال ياروسلاف إيلتش وهو يصافح أوردينوف بقوة:

- هذا عظيم يا فاسيلي ميخائيلوفتش، هذا نبيل. ستكون زينة جماعتنا... أسأل الله أن يفرش طريقك بالسعادة! رباه! ما أشد سعادتي بلقائك! لطالما فكرت فيك! لطالما قلت لنفسي: أين صديقنا الطيب النبيل الروحاني فاسيلي ميخائيلوفتش؟

قعد الرجلان في حجرة خاصة بالمطعم. أمر ياروسلاف إيلتش بمشهيات ومقبلات، وأمر بخمرة، ونظر إلى أوردينوف منفعلًا كل الانفعال؛ ثم بدأ يقول بصوت خجول صوت فيه شيء من المداراة والمراعاة:

- لقد قرأت كثيرًا منذئذ. قرأت بوشكين كله.

كان أوردينوف ينظر إليه ذاهلًا.

أضاف ياروسلاف إيلتش:

- ما أروع وصفه لأهواء الإنسان. ولكن اسمح لي قبل كل شيء أن أعرب لك عن شكري وامتناني. لقد أحسنتَ إليَّ إحسانًا كبيرًا بنبل إلهامك، وروعة أفكارك...

- العفو...

- لا.. اسمح لي.. أنا أحب الانصاف. وإنني لفخور بأن هذا الشعور على الأقل لم ينطفئ في نفسي.

- العفو.. أنت لا تنصف نفسك! أما أنا فالحقيقة أنني...

- لا بل إنني منصف تمامًا. ماذا أنا بالقياس إليك؟

كذلك اعترض ياروسلاف إيلتش بحرارة شديدة.

- العفو...

- نعم... وأعقب ذلك صمت.

واستأنف ياروسلاف إيلتش يقول بلهجة خجولة مادحة:

- لقد انتفعتُ بنصائحك فقطعت صِلاتي بكثير من الأشخاص التافهين. وأنا أقضي في المنزل أكثر أوقات الفراغ التي يدعها لي عملي في الوظيفة. فأقرأ في المساء، أقرأ كتابًا جيدًا، و... ليس لي من رغبة يا فاسيلي ميخائيلوفتش إلا أن أكون نافعًا لوطني بعض النفع...

- لقد عددتك دائمًا إنسانًا نبيلًا جدًا يا عزيزي ياروسلاف إيلتش.

- ستظل أنت العطر الفواح... أيها الشاب النبيل.

قال ياروسلاف إيلتش ذلك وهو يشد على يد أوردينوف شدًا قويًا.

ثم أضاف يلاحظ بعد أن هدأ بعض الهدوء:

- أراك لا تشرب.

- لا أستطيع. أنا مريض.

- مريض؟ أَجِدٌ ما تقول؟ أمنذ زمن طويل؟ كيف مرضت؟ هل تريد أن أقول لك.. أي طبيب يعالجك؟ هل تريد أن أخبر طبيبنا؟ سأذهب إليه بنفسي. إنه حاذق جدًا...

لم يقل ياروسلاف إيلتش ذلك إلا وكان قد تناول قبعته يهم أن ينهض للبحث عن الطبيب.

قال أوردينوف:

- لا... شكرًا. ليس يعالجني طبيب، أنا لا أحب الأطباء...

قال ياروسلاف إيلتش متوسلًا:

- ما هذا الذي تقول؟ أهذا الكلام معقول؟ ثم إنه طبيب حاذق جدًا، منذ مدة... اسمح لي أن أقص عليك هذا يا عزيزي فاسيلي ميخائيلوفتش... منذ مدة جاءه قفّال فقير، فقال له: «لقد وخزت من أصبعي بأداة من أدواتي، فعالجني واشفني»، فلما رأى سيميون بافتوفتش أن المسكين مهدد بالغنغرينا قرر أن يبتر العضو المصاب. ففعل ذلك بحضوري... فعله بحذق يبلغ من النبل، أقصد يبلغ من المهارة أنني أؤكد لك أن رؤية العملية كان يمكن أن تكون متعة كبيرة، من قبيل حب الاطلاع على الأقل، لولا ما يشعر به المرء من شفقة إنسانية... ولكن أين وكيف مرضت؟

- مرضت على أثر تبديل مسكني... ولم أنهض إلا منذ قليل...

- ولكنك ما تزال ضعيفًا جدًا، وما كان ينبغي لك أن تخرج. إذن لقد انتقلت من مسكنك القديم؟ ما الذي دعاك إلى ذلك؟

- صاحبة البيت الذي كنت أسكنه غادرت بطرسبرج.

- دومنا سافيشنا! أهذا ممكن؟ يا لها من عجوز طيبة، نبيلة حقًا! هل تعلم أنني كنت أشعر نحوها باحترام يشبه أن يكون احترام الابن لأمِّه؟ كان في حياتها المنتهية شيء من تلك الروعة الباقية من زمان أسلافنا القدامى، فإذا نظر إليها المرء رأى ماضينا القديم يحيا مرة أخرى أمام عينيه، رآه بكل ما فيه من عَظَمة!.. أقصد.. هل ترى... شيء شعري....

بذلك ختم ياروسلاف إيلتش كلامه، وقد اشتد خجله فجأة، واحمرَّ وجهه حتى الأذنين.

- نعم لقد كانت امرأة شهمة.

- ولكن هل تسمح لي أن أعرف أين تسكن الآن؟

- هنا.. غير بعيد.. في منزل كوشماروف([3]).

- أعرفه.. شيخ مهيب. أستطيع أن أقول إنني أكاد أكون صديقه المخلص. شيخ نبيل.

قال ياروسلاف إيلتش ذلك وهو يكاد يرتعش فرحًا وحنانًا. وأمر بكأس أخرى من الخمر، وبغليون.

- لقد استأجرتَ شقة إذن؟

- بل استأجرتُ غرفة.

- عند من؟ لعلني أعرفه أيضًا...

- عند مورين شيخ طويل القامة.

- مورين، مورين... اسمح لي... أهو ذلك الذي يسكن في الفناء الداخلي فوق صانع التوابيت؟

- نعم، نعم.

- أأنت مرتاح هنالك؟

- لم أسكن إلا منذ برهة قصيرة.

- همْ... أردت فقط أن أقول... ألم تلاحظ شيئًا خاصًا؟

- لاحظت

- أقصد... أنا واثق أنك سترتاح إذا كنت راضيًا عن مسكنك... لم أقصد هذا... ولكنني لمعرفتي بطبعك.. كيف وجدت هذا العجوز البورجوازي؟...

- يخيل إليَّ أنه رجل مريض...

- نعم... مريض جدًا... ولكن ألم تلاحظ شيئًا خاصًا؟ هل كلمته؟

- قليلًا جدًا... إنه لا يحب معاشرة الناس كثيرًا... وهو سريع الغضب...

- همْ...

كذلك قال ياروسلاف إيلتش سادرًا مفكرًا، ثم أردف يقول بعد لحظة صمت:

- إنه رجل تعيس شقيٌّ جدًا.

- هو؟

- نعم. تعيس شقيٌّ جدًا، وهو في الوقت نفسه غريب الأطوار... كل الطرافة على كل حال إذا كان لا يزعجك... معذرة إذا كنت أتكلم في مثل هذا الموضوع... لقد ثار حب الاستطلاع في نفسي.

- الحق أنك أثرت في نفسي حب الاستطلاع أيضًا... وددت لو أعرف من هذا الرجل! ثم إنني أسكن في بيته...

- يقال إنه كان في الماضي على جانب كبير من الثراء. كان تاجرًا ولعلك سمعت عن ذلك. ولكنه فقد ثروته على أثر ظروف تعيسة مختلفة: غرقت له بواخر أثناء عاصفة. وكان يملك مصنعًا عهد بإدارته إلى قريب من أقربائه يحبه كثيرًا، فتدمر المصنع بحريق ومات قريبه في الحريق. لا شك أنك تعترف أن هذه خسارات جسيمة! وعندئذ انهار مورين فيما يُقال، حتى أصبح الناس يخشون على عقله أن يذهب. وبالفعل، فإنه أثناء مشاجرة قامت بينه وبين تاجر آخر يملك بواخر على الفولجا أيضًا تصرف فجأة تصرفًا يبلغ من الغرابة والشذوذ أنَّ الناس عزوا ذلك إلى جنون متأصل. وأنا أميل إلى تصديق هذا أيضًا. لقد سمعتُ الناس يتحدثون عن غرائبه... وأخيرًا حدث في يوم من الأيام شيء يبلغ من الشذوذ أن المرء أصبح لا يستطيع أن يعلله إلا بأنَّ الرجل قد أفقده القدَر القاسي الحانق صوابه.

- ما الذي حدث؟

- يقال إنه أثناء نوبة جنون مرَضي حاول قتل تاجر شاب كان يحبه ذلك الحين حبًا كبيرًا. فلما ثاب إلى رشده بلغ هوله من فعلته أنه أراد أن ينتحر. ذلك ما يُروى على الأقل. لا أدري على وجه الدقة ماذا حدث بعد ذلك. ولكن من المحقق أنه عاش عدة سنين في «العقوبة»(4). ولكن ماذا بك يا فاسيلي ميخائيلوفتش؟ ألم تتعبك قصتي البسيطة هذه؟

- لا، لا، أرجوك... تقول إنه عاش معاقبًا... ولكنه ليس وحيدًا...

- لا أعلم... يقال إنه كان وحيدًا... نعم لم يدخل أحد في هذه القضية، على كل حال لم أسمع شيئًا عما جرى بعد ذلك... ولكنني أعرف...

- تعرف ماذا؟

- أعرف أنه... ولكن ليس ثمة شيء ذو بال أضيفه... كل ما أريد أن أقوله هو أن عليك، إذا لاحظت فيه شيئًا غريبًا يخرج عن المألوف، أن لا تردَّ ذلك إلا إلى المصائب التي نزلت به واحدة بعد أخرى...

- نعم... إنه تقي، بل هو مسرف في التقوى.

- لا أظن ذلك يا فاسيلي ميخائيلوفتش... لقد تألم كثيرًا... ويخيَّلُ إليَّ أنه صافي القلب...

- ولكنه ليس مجنونًا الآن... إنه معافى...

- نعم، نعم هذا محقق، أستطيع أن أؤكده وأن أحلف عليه... إنه يتمتع بجميع ملكاته العقلية. كل ما هنالك أنه كما أشرت أنت إلى ذلك عرضًا غريب الأطوار جدًا و... متدين متعبد... إنه عاقل جدًا... حسن الكلام جريء القول ولا يخلو حديثه من مكر. وما تزال تلاحظ في وجهه آثار حياته الماضية المليئة بالعواصف والأعاصير. رجل طريف. وقد قرأ كثيرًا.

- يبدو لي أنه يقرأ دائمًا كتبًا مقدسة.

- نعم، هو إنسان متصوِّف.

- كيف ؟

- متصوِّف... ولكنني أقول لك هذا سرًا. وإليك سرًا آخر: لقد ظل هذا الرجل مراقبًا مدة طويلة... كان له سلطان كبير على من يجيئون إليه.

- أي سلطان؟

- لن تصدق ما سأرويه لك... اسمع... في ذلك الوقت لم يكن يقطن في هذا الحي... جاء إليه في يوم من الأيام ألكسندر أجناتيفتش، وهو رجل محترم جدًا، عالي المقام، ينعم باعتبار جميع الناس، جاء إليه من قبيل حب الاطلاع، مع رجل آخر هو ملازم في الجيش وصل الرجلان إلى منزله، فاستقبلهما، فأخذ هذا الإنسان الغريب ينظر

إليهما بانتباه شديد، متفرَّسا في وجهيهما، تلك عادته في النظر إلى الناس متفرِّسًا في الوجه إذا هو ارتضى أن يفيدهما في شيء. أما إذا لم يرتضِ ذلك، فإنه يطرد زائريه، بل يقال إنه يطردهم شر طردة، بغير لباقة ولا أدب ولا تهذيب سألهما: «ماذا تريدان أيها السيدان»، فأجابه ألكسندر أجناتيفتش بقوله: «موهبتك كفيلة باطلاعك على ما نريد دون أن نذكره لك»، فقال: «ادخلا معي إلى الغرفة الثانية»، وهناك عيّن الشخص الذي كان في حاجة إليه. لم يقص ألكسندر أجناتيفتش على أحد ما جرى بعد ذلك. ولكنه خرج من منزل الرجل أبيض الوجه كمنديل... وقد وقع الأمر نفسه لسيدة عظيمة من المجتمع الراقي: خرجت من عنده شاحبة كأنها ميتة، غارقة في دموعها، مشدوهة العقل من تنبوءاته ومن فصاحة كلامه...

- غريب... ولكنه الآن لا يعنى بهذه الأمور؟

- ممنوع منعًا باتًا. هناك حالات خارقة تناقل الناس رواياتها... دخل عليه في يوم من الأيام شاب ضابط كان مَعْقدَ رجاءِ أسرته الأرستقراطية ومناط أملها ومحل اعتزازها وافتخارها، فلما ابتسم الشاب حين نظر إلى الرجل، قال له هذا غاضبًا: «ما الذي يضحكك؟ لن تمضي ثلاثة أيام وإلا وتكون هكذا، قال ذلك مصالبًا ذراعيه، ممثلًا بهذه الحركة شكل جثة...»

- وبعد ذلك؟

- لا أجرؤ أن أصدِّق ما حدث، ولكن يقال إن النبوءة تحققت، فمات الشاب بعد ثلاثة أيام فعلًا. إنه يملك هذه الموهبة يا فاسيلي ميخائيلوفتش. أراك تبتسم لقصتي. أنا أعلم أنك أثقف مني. ولكنني أؤمن بالأمر، ليس الرجل بدجّال. إن بوشكين نفسه يتكلم عن شيء من هذا القبيل في كتبه.

- همْ... لا أحب أن أكذِّب ما تقول...

- يخيل إليَّ أنك قلت منذ برهة إنه لا يعيش وحيدًا؟

- لا أعلم... أظن أن ابنته تعيش معه...

- ابنته؟

- نعم، أو ربما زوجته. أعرف أن امرأة تعيش معه... رأيتها عرضًا... ولكنني لم أنعم النظر.

- همْ... غريب.

عاد الفتى يفكر ساهمًا، ورقَّت عواطف ياروسلاف إيلتش. تأثر قلبه من لقيا صديق قديم، ومن أنه قصَّ على هذا الصديق القديم أمورًا شائقة بهذه الطريقة الجميلة. كان قاعدًا على كرسيه يدخن غليونه ولا يحول نظره عن فاسيلي ميخائيلوفتش، ولكنه انتفض فجأة، وتهيأ للنهوض على عجل. قال:

- انقضت ساعة كاملة، وأنا ناسٍ... مرة أخرى أشكر الحظ يا فاسيلي ميخائيلوفتش أنه جمعنا، ولكن يجب عليَّ أن أذهب. هل تسمح لي بأن أزورك في منزلك الكريم،

منزل العلم والأدب؟

- سيكون هذا فضلًا منك... سيسعدني هذا كثيرًا. وسأجيء إليك أنا أيضًا متى استطعت ذلك.

- أهذا ممكن؟ إنك لتغدق عليَّ إذن فضلًا لا نهاية له. لا تستطيع أن تتصور مدى سروري بلقياك.

خرج الرجلان من المطعم، فرأيا سرجيف يقبل عليهما راكضًا. ثم يبلغ ياروسلاف إيلتش مسرعًا أن فيليم إيمليانوفتش ([5]) سيمرُّ توًا. وفعلًا ظهر في الشارع فرَسان يجرّان مركبة جميلة جدًا، ويجريان خببًا ويلفت أحدهما النظر بروعة خاصة.

شد ياروسلاف إيلتش على يد صديقه الحميم شدًا قويًا كما تشدُّ كلابة، ورفع رأسه إلى قبعته فلامسها محييًا، واندفع إلى داخل العربة. وفيما كانت العربة تسير به إلتفت مرتين إلى وراء يسلم على أوردينوف بحركة من رأسه.

كان أوردينوف يشعر بتعب شديد وإعياء كبير في جميع أعضائه حتى ليكاد يعجز عن جرِّ ساقَيْه. فلم يستطع أن يصل إلى المنزل إلا بعد لأيْ. وإلتقى مرة أخرى عند مدخل المبنى بالبوّاب الذي كان قد راقب تحيات الوداع بينه وبين ياروسلاف إيلتش مراقبة دقيقة، وأومأ إلى الفتى من بعيد إيماءة دعوة، ولكن الفتى مرَّ دون أن يتوقف. وعند باب المسكن اصطدم بشخص قصير القامة أشهب الشعر كان خارجًا من عند مورين خافض العينين. فقفز الرجل جانبًا بمرونة كبيرة بينما كان يدمدم قائلًا:

- يا رب يا رب، اغفر خطاياي، اعفُ عن ذنوبي يا رب.

فقال أوردينوف:

- هل آذيتك؟

- لا... شكرًا... يا رب يا رب....

هبط الرجل القصير على السلم ببطء وهو يتأوه ويدمدم ببعض الكلام بين أسنانه؛ إنه صاحب العمارة الذي يخشاه البواب تلك الخشية كلها. عندئذ فقط تذكر أوردينوف أنه كان قد رآه أول مرة هنا عند مورين يوم انتقاله إلى هذا المسكن.

كان أوردينوف يشعر باهتياج واضطراب. وكان يعلم أن خياله وإحساسه متوتران إلى أقصى حدود التوتر، فقرر أن لا يسترسل في مشاعره، وأن لا يركن إليها. وشيئًا فشيئًا هوى إلى نوع من الخدَر. كان يجثم على صدره شعور أليم مقلق. وكان قلبه موجَعًا كأنه جريح، وكانت نفسه تفيض بدموع مخنوقة لا ينضب معينها.

وارتمى من جديد على سريره الذي كانت قد أعدَّته له كاترين، ومن جديد أخذ يتنصت مصيخًا بسمعه مرهِفًا أذنيه. سمع تنفسين: أحدهما شاقّ أليم مرَضي متقطع، والثاني رقيق هادئ ولكنه متفاوت مضطرب أيضًا؛ فكأن اندفاعًا واحدًا وهوى واحدًا يحملان القلبيْن كليهما على هذا الخفقان، هناك في الغرفة المجاورة.. وكان في بعض الأحيان حفيف ثوبها، وانزلاق خطواتها الرفيقة انزلاقًا خفيفًا، بل كان

يسمع صوت قدميْها يترجَّع في قلبه عذابًا أصمّ لكنه ممتع. وأحسَّ أخيرًا أنه يسمع نشجات بكاء، ثم أصوات صلاة من جديد. كان يعلم أنها الآن راكعة أمام الأيقونة ضامَّة ذراعيها إحداهما إلى الأخرى في حزن شديد ويأس رهيب. من هي المرأة؟ لمن تدعو الله؟ أي هوى يائس يبعث هذا الاضطراب في قلبها؟ لماذا يتألم قلبها هذا الألم كله، لماذا ينفجر دموعًا محرقة يائسة إلى هذه الدرجة؟

وأخذ يستعيد ذكرى أقوالها. إن كل ما قالته له ما يزال يترجَّع في أذنيه ترجُّع موسيقى؛ وإن قلبه يستجيب لكل ذكرى لكل كلمة من من كلماتها التي ردَّدتها على مسمعه كترتيل صلاة، إن قلبه يستجيب لكل هذا حبًا قويًا، وخفقة صمّاء موجعة أليمة... وفي لحظة من اللحظات إلتمع في ذهنه كل ما قد رآه في الحلم. ولكن قلبه كله ارتجف حين عاد إلى خياله إحساسه بأنفاسها الحارة وبكلماتها وبقبلتها. أغمض أوردينوف عينيه، واستسلم للنسيان... دقت ساعة في مكان ما... لقد انقضى زمن طويل... الليل يهبط.

وفجأة خيِّل إليه أنها تميل عليه من جديد، إنها تنظر إلى عينيه بعينيها العذبتين الوضاءتين كقبة السماء اللانهائية في ساعة الظهر الدافئة. إن وجهها ينيره هدوء رائع، وإن ابتسامتها تشيع في نفسه سعادة كبيرة، وإنها تميل على كتفه بعطف عظيم، فما يملك لهذا كله إلا أن تخرج من صدره الموهن أنّة سعادة.

كانت تريد أن تكلمه. وها هي ذي تسرُّ إليه بأمر ما، حانية عليه متلطّفة معه... فتترجَّع في أذنيه موسيقى نافذة مؤثرة من جديد. ويتنفس صدره الهواء الدافئ الذي تلهبه أنفاسها القريبة، يتنفسه بشراهة ونهَم. وها هو ذا يمد يديه قلقًا ويتأوَّه عينيه.

كانت كاترين أمامه حقًا، مائلة على وجهه، شاحبة اللون هلعًا، غارقة في دموعها، مرتجفة أشد الارتجاف من فرط الانفعال. وكانت تقول له شيئًا ما، ضارعة إليه وهي تضم يديها وتعضّهما. أخذها بين ذراعيه. فلبثت على صدره وجسمها كله يرتعش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني

1

سألها أوردينوف وقد صحا صحوًا تامًا وما يزال يضمها بين ذراعيه الملتهبين ضمًا قويًا:

- ماذا هنالك؟ ماذا بكِ؟ ماذا بك يا كاترين؟ ما بك يا حبيبتي؟

كانت تنشج في رفق، غاضة طرفها، مخبِّئة وجهها المحترق في صدر الفتى. ولبثت على هذه الحال زمنًا طويلًا لا تستطيع أن تتكلم، وترتجف كأنها خائفة.

قالت أخيرًا بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع:

- لا أدري.

كانت تختنق ولا تكاد تقوى على النطق بهذه الكلمات.

وأضافت:

- لا أدري كيف جئت إلى هنا، عندك.

وشدّت جسمها إليه بمزيد من القوة؛ وكأن عاطفة لا سبيل إلى مقاومتها قد هزتها هزًا قويًا، فإذا هي تقبّل كتفيه، وذراعيه، وصدره. وأحست أخيرًا بانهيار، فخبأت وجهها في يديها، وأسقطت رأسها على ركبتيها.

ما استطاع أوردينوف، وقد استبد به قلق شديد، أن يُنهضَها وأن يجلسها قربه، كان وجهها يحترق خجلًا وحياء، وكانت عيناها تضرعان ملتمستين العفو والصفح، وكانت البسمة التي تبدو ضعيفة على شفتيها تحاول أن تغالب القوة الهائلة التي لا سبيل إلى مغالبتها، قوة شعورها الجديد. ولاح عليها مرة أخرى أنها خائفة من شيء ما: فها هي ذي تدفعه عنها بيدها، ولا تكاد تنظر إليه، وتجيب عن أسئلته، خافضة الرأس، بكلمات متقطعة، وهمس وجل.

سألها أودرينوف:

- أتراكِ رأيتِ في نومكِ حلمًا ثقيلًا، أو رؤيا مفزعة؟ قولي... هل هو أفزعك؟... إنه يهذي، إنه لا يملك عقله... أتراه قال أشياء ما كان ينبغي أن تسمعيها؟... هل قال شيئًا من هذا القبيل؟

أجابت كاترين وهي تكبح انفعالها بكثير من الجهد والعنف:

- لا... لم أنم... لم أستطع إلى النوم سبيلًا. وصمتَ هو طول الوقت. لم ينادني إلا مرة واحدة. اقتربت منه. ناديته. لم يسمعني. حالته سيئة جدًا. أعانه الله. وعندئذ استبد بي قلق شديد، قلق رهيب. صليت طول الوقت، صليت بلا توقف، ثم فجأة ذهلت عن نفسي...

- كفى يا كاترين كفى يا حياتي... أمس إنما اعتراك الخوف.

- لا لم أخف أمس.

- أيحدث هذا أحيانًا.

- نعم يحدث.

كانت ترتجف من قِمَّة رأسها إلى أخمص قدميها، وراودها الهلع والفزع من جديد، فشدت نفسها إليه كطفل.

قالت وهي تحبس نشجاتها:

- ها أنت ذا ترى إذن أنني لم آتِ إليك بغير سبب.

ثم رددت تقول وهي تصافحه عرفانًا بالجميل:

- لم يصعب عليَّ أن أبقى هنالك وحدي إلّا لسبب. كفاك سكب الدموع حزنًا على شقاء الآخرين. احتفظ بدموعك ليوم تتعذب فيه وحدك، ليوم لا يكون معك فيه أحد. اسمع... هل سبق أن أحببت؟

- لا... لم أحب قبلك؟

- قبلي؟ وتنادينني حبيبتك؟

قالت ذلك وهي تنظر إليه مدهوشة على حين فجأة. وأرادت أن تقول شيئًا، لكنها صمتت وغضَّت طرْفها. ثم احمر وجهها بغتة، ومن خلال الدموع التي ما تزال حارة، الدموع المنسية على أهدابها، سطعت عيناها. كان واضحًا أن هناك سؤالًا يحرك شفتيها. نظرت إليه مرتين، نظرة ماكرة، ثم خفضت عينيها فجأة من جديد. قالت:

- لا... لا يمكن أن أكون أول حب لك.

ثم رددت تقول وهي تهز رأسها ساهمة، بينما كانت تضيء وجهها ابتسامة جديدة:

- لا.. لا..

وقالت أخيرًا وهي تنفجر ضاحكة:

- لا... لست من يمكن أن تكون حبيبتك!

ثم نظرت إليه. غير أن حزنًا رهيبًا قد طاف بوجهها عندئذ على حين فجأة، وخوفًا يائسًا قد ارتسم على جميع قسماتها، فشعر أوردينوف بشفقة غريبة، شفقة لا تُفهم، شفقة مرَضية، شعر بعطف قوي على شقاء مجهول؛ وبعذاب لا يُغالب، نظر إليها. قالت بصوت يمضي إلى القلب، وهي تشد على يديه بين يديها، وتحاول أن تخنق نشجاتها:

- اسمع ما سأقوله لك. اسمع جيدًا. اسمع يا فرحتي! سيطر على قلبك، وكفَّ عن حبي إذا كنت تحبني الآن، ذلك خير لك. فإن استطعت أن تكف عن حبي أصبح قلبك

أخف وأفرح، وتحاشيت عدوًا رهيبًا، وكسبت أختًا حنونًا. سآتي إليك إن شئت. وسأداعبك، ولن أخجل من البقاء قربك. لقد بقيت قربك يومين حين كنتَ مريضًا جدًا! فاتخذني أختًا. لقد دعوت لك العذراء دعاءً حارًا، وما فعلت هذا عبثًا؟ لن تجد أختًا أخرى مثلي. لو طفت الكون بأسره، فلن تجد حباً كحبي، إذا كان قلبك ينشد الحب. سأحبك بقلبي كله كما أحبك الآن، وسأحبك لأن روحك صافية، مضيئة، شفافة، لأنني حين نظرت إليك أول مرة، رأيتُ فيك على الفور نزيل مسكني، النزيل الذي أريده، فليس من باب المصادفة أنك جئت إلينا. أحبك لأن عينيك حين تنظران تحبّان وتخاطبان من أعماق قلبك. وحين تخاطبني عيناك أدرك فورًا كل ما تفكر فيه وكل ما يجول في خاطرك. لذلك أريد أن أهب لحبك حياتي وحريتي. لسوف يحلو لي أن أكون عبدة من وقع عليه قلبي... ولكن حياتي ليست لي. إنها لإنسان آخر، وحريتي سجينة. ولكن اقبلني أختًا، كن أخي، خذني لقلبك استبد بي الخوف والقلق من جديد. افعل ما من شأنه أن لا يجعلني أخجل من المجيء إليك والبقاء قربك ليلة طويلة. هلَّ سمعتني؟ هلَّ فتحت لي قلبك؟ هل فهم عقلك ما قلته لك؟

وأرادت أن تقول شيئًا آخر أيضًا. ولكنها نظرت إليه، ووضعت يدها على كتفه، ثم ارتمت على صدره مهدودة القوى. توقف صوتها في نشجات محمومة ولهى، إن صدرها يعلو ناهدًا، وإن وجهها يصطبغ بحمرة كحمرة الشفق عند غروب الشمس.

دمدم أوردينوف يقول وهو يشعر بغشاوة تحجب عينيه، ويحس بأنفاسه تتوقف:

- حياتي...

وإذ أصبح لا يعرف ماذا يقول، ولا يفهم ماذا يقول، وإذ أصبح يرتجف مخافة أن يدمر بنسمةٍ هذا الذي يحدث له فيحسبه رؤيا أكثر مما يحسبه واقعًا من فرط ما أصبحت الأمور غامضة مبهمة أمام بصره قال:

- فرحتي... لا أعرف... أنا لا أفهمك... لا أتذكر ما قلته منذ هنيهة. عقلي أظلم. قلبي يتألم... مليكتي... وخنق الهياج صوته. شدت جسمها إلى جسمه بمزيد من القوة. نهض. فقد بصره. سقط على ركبتيه محطمًا طائش اللب من الانفعال، وانطلقت من صدره أخيرًا نشجات. إن صوته الذي يصدر من القلب رأسًا، يهتز اهتزاز حبل على مدى حماسة عظيمة وحب مجهول. قال وهو يحاول أن يخنق نشجاته:

- أنتِ؟ أيتها الحبيبة الغالية؟ من أين جئت يا حمامتي؟ من أي سماء هبطت؟ لكأنَّ حلمًا يلفّني، فما أستطيع أن أصدّق وجودك... لا تلوميني... دعيني أتكلم... منذ مدة طويلة أريد أن أتكلم.... من أنتِ؟ من أنتِ يا فرحتي؟ كيف وقعت على قلبي؟قولي... ألأنت أختي منذ زمن طويل؟ قصّي عليَّ كل شيء عنك. أين كنت إلى هذا اليوم؟ قولي لي ما اسم المكان الذي عشتِ فيه. ما الذي أحببته هنالك؟ بماذا كنت سعيدة، وما الذي كان يجعلك حزينة؟ أكان الهواء دافئاً ثمَّ؟ أكانت السماء صافية؟... ما هي الموجودات التي كانت حبيبة إلى قلبك، أثيرة في نفسك؟ مَنْ أحبكِ قبلي؟ إلى من اتجهت نفسك هنالك أول ما اتجهت؟ أكانت أمك معك؟ أكانت هي التي تهدهدك وتلاعبك وتداعبك حين كنت طفلة؟ بماذا كنت تحلمين؟ فيمَ كنت تفكرين؟ ما هي

أحلامك التي تحققت، وما هي أحلامك الأخرى؟ قولي لي كل شيء... من هو الإنسان الذي خفق له قلبك البكر أول ما خفق؟ من هو الإنسان الذي وهبته قلبك أول ما وهبت قلبك؟ قولي لي... ما هو العطاء الذي يجب أن أقابل به عطاء قلبك؟ تكلمي يا حبيبتي الغالية، يا ضيائي، يا أختي! قولي لي كيف أستطيع أن أستحق قلبك؟

توقف صوته من جديد، وخفض رأسه. ولكنه حين رفع عينيه تجمَّد هولًا ورعبًا، وانتصب شعر رأسه هلعًا وجزعًا.

كانت كاترين قاعدة، شاحبة الوجه كميت.

إنها ساكنة جامدة، شاخصة ببصرها إلى الفضاء. شفتاها مزرقَّتان كشفتي جثة، وعيناها تفيضان بألم أخرس رهيب. وها هي ذي تنهض ببطء، فتخطو بضع خطوات، ثم ينطلق من صدرها نحيب حاد، وتسقط أمام الأيقونة... إن كلمات موجزة، مضطربة، تخرج من بين شفتَيْها. وأُغمي عليها. فأسرع أوردينوف ينهضها مروعًا، ويرقدها على السرير. لبث واقفًا أمامها لا يتذكر شيئًا. وبعد دقيقة فتحت عينيها، وجلست على السرير، ونظرت حولها، وأمسكت يد أوردينوف. جذبته نحوها، تمتمت بشيء بين شفتيها الصفراوين، ولكن صوتها لم يسعفها. وأخيرًا تدفقت دموعها غزيرة تحرق يد أوردينوف الباردة كالثلج، وأخيرًا قالت هلعة:

- ما أشد هذا الألم... ما أشده!.. حانت ساعتي الأخيرة.

أرادت أن تقول شيئاً آخر، ولكن لسانها لم يطاوعها. كانت عاجزة عن النطق بكلمة واحدة. إنها تنظر يائسة إلى أوردينوف الذي لا يفهمها. مال أوردينوف عليها، ازداد دنوًا منها، أصغى إليها، فسمعها تنطق بهذه الكلمات واضحة:

- أنا مسحورة.. سحروني.. ضيَّعوني...

رفع أوردينوف رأسه ونظر إليها مدهوشًا. إن فكرة فظيعة تبرق في رأسه، رأت كاترين تقبُّض وجهه.

فأردفت تقول:

- نعم سحروني، رجل شرير سحرني.. إنه هو.. هو قاتلي. لقد بعته نفسي.. لماذا، لماذا تكلمت عن أبي؟ لماذا أردت أن تعذبني؟جازاك الله!

وبعد برهة أخذت تبكي في رفق. إن قلب أوردينوف يخفق خفقانًا قويًا، ويعاني قلقًا قاتلًا.

همست تقول بصوت محبوس، عجيب:

- يقول إنه سيأتي ليأخذ روحي إذا مات... إنني له. لقد بعث نفسي. عذَّبني. قرأ في الكتب. انظر... هذا كتابه. إليك كتابه. يقول إنني ارتكبت إثمًا قاتلًا.. انظر.. انظر..

أشارت إلى كتاب. لم يكن أوردينوف قد لاحظ الكتاب، ولا عرف كيف وُجد في هذا المكان. تناول الكتاب بحركة آلية، هو كتاب من طراز الكتب القديمة التي يقرأها

قدامى المؤمنين والتي أتيح له أن يرى مثلها قبل الآن. ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن ينظر. إن انتباهه منصرف إلى شيء آخر انصرافًا كاملًا، سقط الكتاب من بين يديه. ضم كاترين ضمًا رفيقًا، محاولًا أن يردها إلى صوابها. قال لها:

- كفى كفى... لقد روَّعوكِ. أنا معك. ثقي بي، يا حبيبتي الغالية، يا ضيائي...

قالت وهي تشد على يديه شدًا قويًا:

- أنت لا تعرف شيئًا، لا تعرف شيئًا. أنا دائمًا هكذا... خائفة من كل شيء.

ثم قالت بعد لحظة، وهي تلهث لهاثًا شديدًا:

- حسبك، حسبك، لا تعذبني مزيدًا من التعذيب، وإلا ذهبت إليه. إنه كثيرًا ما يخيفني بأقواله... أحيانًا يتناول كتابًا، هو أكبر الكتب، ويأخذ يقرأ لي فيه... إنه يقرأ دائمًا أشياء قاسية جدًا، أشياء رهيبة فظيعة! لا أعرف ماذا يقرأ، لا أفهم جميع الكلمات، ولكن الخوف يعتريني؛ وحين أسمع صوته، فكأنه ليس هو الذي يقرأ، بل شخص شرير لا سبيل إلى ترويضه، ولا يمكن تأنيسه وتلطيفه. عندئذ ينقبض قلبي حزنًا... عندئذ يحترق قلبي... شيء مروِّع، فظيع!...

قال أوردينوف وهو لا يكاد يفهم كلماتها:

- لا تذهبي إليه! لماذا تذهبين إليه؟

- لماذا جئت إليك؟ اسأل هذا السؤال... أنا نفسي لا أعرف. وهو يقول لي طول الوقت: «صلي لله، صلّي» أحيانًا أنهض في الليل المظلم البهيم، فأصلّي مدة طويلة، ساعات كاملة، وكثيرًا ما أكون نعسى ولكن الخوف يمنعني من النوم فأظل يقظى، ويخيل عندئذ أن الصاعقة تتهيأ حولي، أن هذا سيحمل إليَّ الأذى، أن الأشرار سيمزقونني، سيقتلونني، وأن القديسين لن يسمعوا صلواتي وتضرعاتي، وأنهم لن ينقذوني من العذاب الرهيب... نفسي تتهشم، كأن الجسم كله يريد أن يذوب دموعاً... أستأنف الصلاة، وأظل أصلي إلى أن تنظر إليَّ السيدة العذراء - في الأيقونة - بشيء من الحنان. وأنام أحيانًا على الأرض، ساجدة أمام الأيقونة، ولكن يحدث أيضًا أن يستيقظ، فيناديني، ويأخذ يلامسني ويواسيني، فأشعر عندئذ بتحسن، وأصبح خفيفة فرحة قادرة على احتمال أي شقاء. متى كنت معه، لا أشعر بخوف. كلامه عظيم.

سألها أوردينوف وهو يعض على يديه ألمًا ويأسًا.

- ولكن ما هو الشقاء الذي ألمَّ بك؟

امتقع لون كاترين امتقاعًا رهيبًا نظرت إليه نظرة من حكم عليه بالإعدام ولا أمل له في عفو. قالت:

- الشقاء الذي ألمَّ بي أنا؟ أنا ابنةٌ لعنتها أمها... أنا أَمَّتُ أمي.

أحاطها أوردينوف بذراعيه دون أن ينبس بكلمة.

شدت جسمها إليه، شعر بقشعريرة تسري في جسم المرأة الشابة وخيّل إليه أن روحها تنفصل عن جسدها.

قالت مضطربة الذكريات ناظرة إلى ماضيها:

- لقد دفنتها... أردت أن أتكلم منذ مدة طويلة. ولكنه يمنعني من الكلام بالصلوات، والملامات، والتهديدات... وفي بعض الأحيان يضرم هو نفسه خوفي كما يمكن أن يفعل أعدى عدوٍّ لي... والآن توافيني هذه الأفكار كلها في الليل... اسمع، اسمع.... حدث ذلك منذ زمن بعيد، بعيد جدًا. أصبحت لا أتذكر الآن متى حدث، ولكن كأنه حدث أمس... كأنه حلم رأيته أمس فكان يأكل قلبي. والقلق يضاعف طول الزمان... اجلس هنا، اجلس قربي، فسأقص عليك قصة ألمي كله. لا يهمني أنني لُعنت... سوف أروي لك حياتي كلها.

أراد أوردينوف أن يمنعها من ذلك، ولكنها ضمت إحدى يدَيْها إلى الأخرى ضارعة إليه أن يسمع كلامها. ثم أخذت تتحدث من جديد، باضطراب ما ينفك يزداد. قصتها مفتتة. في أقوالها تهمهم عاصفة نفسها. ولكن أوردينوف كان يفهم كل شيء، لأن حياتها كانت قد أصبحت حياته ولأن ألمها كان قد أصبح ألمه، ولأن عدوه كان قد انتصب أمامه، يضخُم في عينيه عند كل كلمة جديدة تقولها، ويجثم على قلبه بقوة كأنها لا تنضب، ضاحكًا من غضبه، مستهزئًا بحنقه. كان دمه يزدحم في قلبه، ويعتم أفكاره. إن الشيخ الشرير الذي رآه في المنام (كان أوردينوف يعتقد أنه رآه في المنام) هو الآن أمامه فعلًا.

بدأت كاترين كلامها:

«كان ذلك في ليلة تشبه هذه الليلة لكنها أعصف منها. الريح تهب في الغابة هبوبًا لم أشهد مثله حتى الآن.. أو لعلني أظن ذلك لأن تلك الليلة هي الليلة التي تم فيها ضياعي!.. تحت نافذتي تحطمت شجرة سنديان.. لقد أكد لنا شحاذ، هو شيخ أبيض الشعر تمامًا كان يأتي إلينا، أنه رأى هذه الشجرة حين كان طفلًا، وأنها كانت في ذلك الحين لا تقل ضخامة عنها يوم حطمتها الريح...»

«وفي تلك الليلة نفسها - إنني أتذكر كل شيء كأنه حدث بالأمس - حطمت العاصفة سفن أبي، فذهب أبي إلى الشاطئ فورًا، رغم أنه كان مريضًا، منذ هرع الصيادون يبلغونه النبأ عندنا في المصنع. بقينا أنا وأمي وحدنا. كنت وسنى.. وكنت حزينة أبكي بكاءً مرًا... أعرف لماذا... كانت أمي قد مرضت منذ قليل، وكانت شاحبة الوجه، وكانت تردد على مسامعي في كل لحظة أن عليَّ أن أهيئ لها كفنها. وفجأة طرق باب منزلنا. قفزت من مكاني. ازدحم الدم في قلبي. صرخت أمي.. لم أنظر إليها.. كنت خائفة. حملت المصباح، ومضيتُ أفتح الباب بنفسي.. كان هو. خفت. كنت دائمًا أخاف حين يأتي إلينا. كان ذلك شأني منذ أبعد عهد أتذكره من طفولتي.. ولم يكن شعره أبيض في ذلك الحين. كانت لحيته سوداء كالقار، وكانت عيناه تلمعان لمعان الفحم، ولم ينظر إليَّ نظرة حنان مرةً واحدة... سألني هل أمي في البيت أغلقت الباب، وأجبته بأن أبي ليس في البيت. قال: «أعرف»، ونظر إليَّ على حين فجأة نظرة خاصة. تلك أول مرة ينظر إليَّ فيها هكذا. انصرفتُ. ظلَّ ساكنًا لا

يتحرك. قلت لنفسي: «لماذا لا يجيء؟». ودخلنا الغرفة. سألني: «لماذا أجبتني بأن أباك ليس في المنزل حين سألتك هل أمك في المنزل؟. صمتُّ».

«كانت أمي في ذعر. ارتمت عليه... لم يكن ينظر إليها. كنت أرى كل شيء. كان مبللًا يرتجف. لقد لاحقته العاصفة عشرين فرسخًا، من أين كان آتيًا؟ لم نكن نعرف ذلك، لا أنا ولا أمي. إننا لم نره منذ تسعة أسابيع، خلع طاقيته ونزع قفازيه، لم يصلِّ للأيقونات ولا حيا أهل المنزل... قعد قرب النار...»

مرّرت كاترين يدها على وجهها كأن شيئًا كان يخنقها. ولكنها رفعت رأسها بعد دقيقة وتابعت تروي قصتها:

«أخذ يكلم أمي، باللغة التترية. كانت أمي تعرف هذه اللغة. أما أنا فلم أفهم كلمةً واحدةً، كانا في بعض الأحيان يصرفاني إذا جاء... أما الآن فإن أمي لم تجرؤ أن تقول شيئًا لابنتها. الشيطان يشتري نفسي، وأنا أنظر إلى أمي مسرورة، رأيت أنهما ينظران إليَّ، أنهما يتحدثان عني... أخذت أمي تبكي... أمسك سكينه. سبق أن حدث عدة مرات أن أمسك سكينه أثناء مخاطبة أمي. نهضت و تشبثت بحزامه كنت أريد أن أنتزع من يده السكين. صرَّ بأسنانه وصرخ، وأراد أن يدفعني عنه..... لطمني على صدري، ولكنني لم أتراجع قدرت أنني سأموت في مكاني... غشيت عيني سحابة. سقطت على الأرض دون أن أقول كلمة واحدة... ونظرت ما وسعني أن أنظر وأنا على هذه الحال... خلع حزامه، وشمرَّ كم اليد التي لطمني بها، وتناول السكين فأعطانيها، وقال لي: «ابتري يدي، افعلي ما تشائين، ما دمت قد أسأت إليك، وأنا، أنا المتكبر، سوف أخرُّ ساجدًا أمامك». أعدت السكين إلى غمدها... كنت أختنق... أبيت حتى أن أنظر إليه. أذكر أنني تبسمت دون أن أباعد شفتيَّ، وأنني ألقيت نظرة قاسية على عيني أمي الحزينتين... كانت أمي جالسة، شاحبة الوجه كميتة...»

كان أوردينوف يصغي بانتباه شديد إلى هذه القصة المشوّشة. وشيئاً فشيئاً تبدد اضطراب كاترين. أصبح تدفق كلامها أهدأ. كانت الذكريات تستدرج المخلوقة البائسة، وتبعثر قلقها على صفحة الماضي العريض.

«تناول طاقيته وخرج دون أن يحيي. حملت المصباح من جديد لأرافقه، بدلًا من أمي التي أرادت أن تشيّعه برغم أنها مريضة، وصلنا إلى الباب الخارجي. كنت صامتة. فتح الباب وطرد الكلاب. نظرت إليه. خلع طاقيته وانحنى أمامي انحناءً كبيرًا، رأيته بعد ذلك يضع يده في جيب صديرته فيخرج منها علبة صغيرة مفروشة بمخمل أحمر. فتح العلبة. نظرتُ. إنها لآلىء ضخمة. قدَّم إليّ اللآلئ قائلًا: «لي جميلة غير بعيدة من هنا. كنت أحمل هذه اللآلئ إليها، ولكنني لن أعطيها إياها. خذيها أنت يا حلوتي، زيني بها جمالك؛ أو اسحقيها بقدميك إذا شئت، ولكن خذيها». أخذت اللآلئ، ولكنني لم أسحقها بقدمَيَّ. تناولتها تناول حية، دون أن أعرف لماذا تناولتها. عدت إلى الغرفة، ووضعت اللآلئ على المائدة أمام أمي.

«لبثت أمي برهة لا تنطق بكلمة، شاحبة شحوبًا شديدًا، كأنها تخشى أن تكلمني. ثم قالت: «ما هذا يا صغيرتي كاترين؟»، فأجبتها: «لك إنما جاء هذا التاجر بها... أنا لا

أدري...» نظرت إليها. أجهشت باكية. قالت: «لا... ليست لي يا كاترين، ليست لي أيتها البنت الشريرة. ليست لي». ما زلت أتذكر مدى الحزن الذي لاح في وجهها وهي تنطق بهذه الكلمات. لكأن قلبها كان يُطعن طعنًا. رفعت عيني... أردت أن أرتمي على قدميها. ولكن الشيطان وسوس لي فجأة أن أقول: «إذا لم تكن لك، فلعلها إذن لأبي. سأعطيه إياها متى عاد. سأقول له إن تجارًا جاءوا إلى هنا وتركوا هذه البضاعة...». عندئذ أجهشت أمي باكية منتحبة، وقالت: «سأذكر له بنفسي من هم التجار الذين جاءوا إلى هنا، ومن أجل أية بضاعة جاءوا... سأقول له من أنت يا ابنة الزنا!... ما أنتِ بنيتي بعد الآن! أنت أفعى! أنت ابنة لعنتها أمها!» سكتّ. كانت عيناي بلا دموع، كان كل شيء قد مات في نفسي! ذهبت إلى غرفتي، ولبثتُ الليل كله أنصت إلى العاصفة وأفكر...

انقضت خمسة أيام. وفي مساء اليوم الخامس وصل أبي، مقطب الحاجبين، حانق الوجه. ولكن المرض كان قد حطمه في أثناء الطريق. نظرت فرأيت ذراعيه مضمّدتين. فهمت أن عدوه قد لقيه في طريقه. وأنا أعرف ماذا كان عدوه. كنت أعرف كل شيء. لم يقل لأمي شيئًا. لم يسأل عني واستدعى جميع العمال. أمرهم بوقف العمل في المصنع، وبأن يحرسوا المنزل من العين الخبيثة. قال لي قلبي في تلك اللحظة إن نازلة تهدد منزلنا. لبثنا ننتظر. انقضى الليل. ليلة أخرى تملؤها الصواعق. كان الاضطراب يغزو قلبي، فتحت نافذتي، كان وجهي يحترق، وكانت عيناي تفيضان دموعًا، وقلبي يشتعل بنار وجسمي كله أشبه بجمرة. كنت أود لو أمضي إلى بعيد، إلى آخر العالم، إلى حيث تولد الصاعقة. إن صدري ينتفخ... وفجأة، في ساعة متأخرة، بينما كنت نائمة، أو قل غافية نصف إغفاء، سمعت طرقًا على نافذتي وصوتًا يهتف: «افتحي». نظرت، إن رجلًا قد تسلق بواسطة حبل حتى وصل إلى نافذتي، عرفته فورًا. فتحت النافذة وتركتُ له أن يدخل غرفتي. إنه هو لم ينزع طاقيته. جلس على مقعد من المقاعد، يلهث لهاثًا قويًا ولا يكاد يستطيع أن يتنفس، كأن أحدًا كان يطارده. لطوت في ركن. أحسست أن وجهي يشحب...

قال: «هل الأب في البيت؟» قلت: «نعم». قال: «والأم؟». قلت: «والأم أيضًا». قال: «اسكتي الآن. هل تسمعين؟» قلت: «أسمع». قال: «ماذا تسمعين؟» قلت: «الريح تحت النافذة». قال: «طيب يا جميلتي، هل تريدين أن تقتلي عدوك، أن تنادي أباك، أن تزهقي روحي؟ أنا أخضع لمشيئتك. إليك هذا الحبل، فأوثقيني به، إذا كان قلبك يهيب بك أن تنتقمي للإساءة». سكتُ. قال: «هلا تكلمتِ يا فرحتي؟». قلت: «ماذا يجب؟...». قال: «يجب عليَّ أن أبعد عدوي، وأن أودِّع حبيبتي القديمة، وأن أنحني لك أنت أيتها الفتاة انحناءً كبيرًا من قبيل التحية...». أخذت أضحك، ولا أدري أنا نفسي كيف نفذت هذه الكلمات الموبوءة إلى قلبي، قال: «دعيني إذن يا جميلتي أنزل إلى تحت وأحيي رب المنزل». ارتعشتُ من قمة رأسي إلى أخمصِ قدمَيّ، واصطكت أسناني، واشتعل قلبي نارًا... مضيتُ أفتح الباب، وأدعوه أن يدخل البيت. ولكنني قلتُ عند العتبة: «استرد لآلئك، ولا تُهدِ إليَّ شيئًا بعد الآن». ورميت له الحلية الصغيرة.

توقفت كاترين عن الكلام لتتنفس قليلًا. كانت تارة ترتعش و تشحب، وتارة يزدحم الدم في وجنتيها. ففي اللحظة التي توقفت فيها عن الكلام كان وجهها مشتعلًا، وعيناها تلتمعان من خلال الدموع، وكانت أنفاسها الثقيلة ترعش صدرها، ولكنها لم تلبث أن اصفرَّت فجأة، ثم استأنفت تقول بصوت يفيض حزنًا:

«لبثتُ عندئذ وحدي، وكنت أحس أن العاصفة تهمهم حولي... وفجأة سمعتُ صرخات... إن عمال المصنع يركضون في الفناء.... ويصيحون: «المصنع يحترق». اختبأت في ركن. هرب الجميع من المنزل... بقيت وحيدة مع أمي. كنت أعرف أن الحياة تغادرها: إنها راقدة على فراش الموت منذ ثلاثة أيام كنت أعلم ذلك، أنا البنت التي لعنتها أمها! وانطلقت في غرفتي على حين بغتة صرخة ضعيفة، كصرخة طفل يخاف من الليل. ثم هدأ كل شيء. نفخت على الشمعة. كنت متجمدة كالجليد. خبأت وجهي في يدي. خفت أن أنظر. وفجأة سمعت صرخة على مقربة مني. كان أناس يهرعون من المصنع. ملت من على النافذة.. رأيت أبي ميتًا يحملونه إلى البيت. وسمعتُ الناس يقولون: «لقد سقط من السلم في مرجل الماء الغالي، كأن الشيطان دفعه إليه!». شددت جسمي إلى السرير. انتظرت. لا أدري من انتظرت، لا أدري ماذا انتظرت. أتذكر الآن أن رأسي أصبح ثقيلًا أن ضياعي عندئذ دفعة واحدة وكان الدخان يخز عيني، فيسعدني أن ضياعي أصبح قريبًا. وفجأة شعرت بأن أحدًا ينهضني من كتفي... نظرتُ ما أمكنني أن أنظر... إنه هو! إنه محترق. ثيابه ساخنة، تفوح منها رائحة الدخان. قال: «جئت آخذكِ يا جميلتي. فقدت روحي من أجلك، في سبيلك. مهما أُصلِّ، فلن تُغفَرَ لي هذه الليلة الملعونة، اللهم إلا إذا صلينا معًا!». وضحك، ضحك الملعون! قال: «دليني على الطريق الذي يمكن أن نخرج منه من دون أن يرانا أحد. أمسكتُ يده، وقدته. اجتزنا الدهليز. كانت المفاتيح معي. فتحت الباب الاحتياطي، ودللته على النافذة. إن النافذة تطل على الحديقة. تناولني بذراعيه القويتين ووثب من النافذة... أخذنا نركض ركضنا مدة طويلة. لمحنا غابة، أصاخ بسمعه. قال: «إنهم يلاحقوننا يا كاترين. إنهم يطاردوننا! إنهم يطاردوننا يا جميلتي؛ ولكن ليس هذا أوان الاستسلام. قبليني في سبيل الحب الأبدي، والسعادة الأبدية!». قلت له: «لماذا في يدك دم؟» قال: «دم؟ يا عزيزتي... لأنني قتلتُ الكلاب التي كانت تنبح. هيا بنا» واستأنفنا الركض. وفجأة رأينا في الطريق حصان أبي. كان الحصان قد انتزع رسنه وهرب من الاسطبل لينجو من اللهب. قال: «اركبي معي يا كاترين، لقد أرسل الله إلينا نجدة!». صمتّ. قال: «ألا تريدين؟ أنا لست وثنيًا، ولا شيطانًا، سأرسم إشارة الصليب إذا شئت». رسم على نفسه إشارة الصليب. جلستُ على الحصان، وإذ شددتُ جسمي إلى جسمه، ذهلت عن نفسي على صدره، فكأنني في حلم... حتى إذا ثبت إلى رشدي، كنا قد أصبحنا قرب نهر عريض... أنزلني عن ظهر الحصان، ثم ترجَّل، ومضى نحو شجيرات القصب على شاطئ النهر. كان قد أخفى هنالك قاربه. قال: «وداعًا يا حصاني الشجاع، ابحث لنفسك الآن عن صاحب آخر. أصحابك القدامى تركوك». ارتميت على حصان أبي أقبِّله بحنان. ثم ركبنا القارب. تناول المجدافين، وسرعان ما غاب عنا الشاطئ، فلما ابتعدنا هذا الابتعاد ترك المجدافين وأخذ يجيل نظره فيما حوله، قال: «سعد يومك أيها النهر، يا مرضع العالم ويا مرضعي! قل لي هل

احتفظت برزقي في غيبتي؟ هل بضائعي سليمة لم يمسسها أذى؟». صمتّ وخفضتُ عينيَ كان وجهي قد اصطبغ بالحمرة من الخجل، قال: «خذ كل شيء إن شئت، ولكن عدني أن تصون وأن تحب لؤلؤتي التي لا تقدر بثمن... قولي كلمة واحدة على الأقل يا جميلتي! أضيئي وجهك بابتسامة! كما تطرد الشمس الليل المظلم البهيم....» قال ذلك وابتسم. أردت أن أقول كلمة... كنت خائفة صمتّ. قال يجيب على فكري الوجل الخجل: «لك ما تشائين! ما من شيء يمكن الحصول عليه عنوة، حفظك الله يا حمامتي! أرى أن ما تحملينه لي من كره هو الأقوى...» كنت أصغي إليه. اعتراني غضب. قلت له: «نعم أكرهك لأنك لطختني في تلك الليلة المظلمة، وما تزال تسخر من قلبي، قلب الفتاة...» قلت ذلك ولم أستطع أن أحبس دموعي. بكيت. وصمتّ. لكنه نظر إليَّ نظرة لم أملك معها إلا أن أرتعش ارتعاش ورقة في مهب الريح. قال لي وعيناه تسطعان سطوعًا رائعًا: «اسمعي يا جميلتي! إن ما سأقوله ليس لغوًا، بل هو عهد عظيم؛ ما ظللت تهبين لي السعادة فسأكون سيدًا، ولكن إذا انقطعت عن حبي في لحظة من اللحظات، فلا حاجة بك إلى الكلام، بل تكفي إشارة من حاجبك، يكفي أن تلقي عليَّ نظرة من عينك الكحلاء حتى أردّ إليك حبك والحرية. ولكن اعلمي، أيها الجمال الشامخ، أن ذلك اليوم آخر أيامي!». جسمي كله ابتسم لدى سماع هذه الكلمات...

هنا قطع الانفعال قصة كاترين. فتنفستْ، حتى إذا همَّت أن تتابع حديثها إلتقت نظرتها الملتمعة بنظرة أوردينوف المشتعلة تحدِّق إليها، فارتعشت، وأرادت أن تقول شيئًا ما، ولكن الدم صعد إلى وجهها، خبَّأت وجهها في يديها، ودفنته في المخدات. كان أوردينوف مضطربًا أعمق الاضطراب. إن انفعالاً أليمًا لا يحدَّد ولا يطاق، كان يسري في جميع أنسجة جسمه سريان السم، ويكبر ويعظم عند كل كلمة جديدة من قصة كاترين. إن رغبة لا يشفعها أمل، وهدى جامحًا شرهًا، كانا يملكان عليه كل أفكاره ويبثان الاضطراب في عواطفه، وإن حزنًا عميقًا لا نهاية له كان في الوقت نفسه يجثم على صدره بمزيد من الثقل شيئًا بعد شيء. كان يريد في بعض اللحظات أن يصرخ مناشدًا كاترين أن تصمت، كان يريد أن يرتمي على قدميها، ضارعًا إليها والدموع في عينيه، أن تعيد إليه آلامها السابقة وعاطفتها الصافية القديمة. كان يشعر بالشفقة على دموعها التي جفت منذ مدة طويلة. كان قلبه يتألم ويتعذب. لم يفهم كل ما قالته كاترين؛ كان حبه يخاف من العاطفة التي تهز المرأة الشقية. لعن في تلك اللحظة هواه. إن هذا الهوى يخنقه خنقًا، وهو يشعر بما يشبه الرصاص يجري في شرايينه بدلًا من الدم.

استأنفت كاترين كلامها تقول فجأة وقد رفعت رأسها:

- آه... ليس شقائي فيما قصصته عليك حتى الآن. ليس هذا عذابي. لا يضيرني أن تلعنني أمي في ساعتها الأخيرة! إنني لا آسف على حياتي الذهبية السالفة! ولا يضيرني أن أكون قد بعت نفسي للإثم وأن أحمل الخطيئة الأبدية من أجل لحظة سعادة! لا.. ليس شقائي في هذا، ليس عذابي في هذا!... لا... وإنما الذي يؤلمني ويمزق قلبي تمزيقًا هو أن أكون له عبدة ملوَّثة، أن يكون عاري عزيزًا في نفسي، أن يجد قلبي لذة ومتعة في تذكر ألمه كما لو كان هذا الألم فرحًا وسعادة. ذلك هو

شقائي: أن لا أستطيع أن أغضب و أن أحقد للإساءة التي نالتني، والأذى الذي ألحق بي!...

كانت أنفاس حرَّى لاهثة تحرق شفتيها. كان صدرها يهبط هبوطًا عميقًا ويعلو علوًا كبيرًا، وكانت عيناها تسطعان بحنق مسعور... ولكن فتنة رائعة كانت تنتشر على وجهها في تلك اللحظة، فتكتسب كل قسمة من قسماتها جمالًا يبلغ من القوة أن الأفكار السوداء المظلمة التي غزت أوردينوف أخذت تتبدد بما يشبه السحر. إن قلبه يرنو إلى ضمِّ قلبها، إنه يصبو إلى أن ينسى نفسه معها في عناق مجنون جامح حتى ليموتا معًا. إلتقت عينا كاترين بنظرة أوردينوف المضطربة، فابتسمت له ابتسامة أجرت في قلبه تيارين من نار يحرقانه، وهو لا يكاد يدرك ذلك. همس يقول لها حابسًا صوته المرتجف:

- ارحميني... رفقًا بي!...

مالت كاترين عليه متكئة بإحدى ذراعيْها على كتفه، ونظرت إليه من قرب حتى اختلطت أنفاسهما.

- لقد ضيّعتني! لست أعرف ألمك، عصفت بقلبي... ماذا يهمني أن أعرف أن قلبك يبكي؟ قولي لي ما الذي ترغبين فيه، فأفعله. تعالي معي. هيا بنا، لا تقتليني! لا تودي بحياتي؟...

نظرت إليه كاترين ساكنة لا تتحرك، وقد جفَّت الدموع على وجنتيها المحترقتين. أرادت أن تقاطعه، أن تمسك بيده، أن تقول له شيئًا، ولكن الكلمات لم تسعفها.

وهذه ابتسامة غريبة تظهر بطيئة على شفتيها، ثم هذه ضحكة تخرج من الابتسامة.

وتابعت أخيرًا تقول:

- لم أقص عليك كل شيء... سأحكي لك أمورًا أخرى. ولكن هل تراك تصغي إلى كلامي؟ اصغِ إلى حديث أختك... أريد أن أروي لك كيف عشت سنة معه.. لا.. لن أفعل هذا.. «انقضت سنة... سافر مع رفاقه في النهر. وبقيتُ أنا مع أمه أنتظر. انتظرته شهرًا، فشهرًا آخر. وفي ذات يوم، إلتقيتُ بتاجر شاب.. نظرت إلى التاجر الشاب.. فتذكرت السنين الخوالي... قال لي التاجر الشاب بعد كلمتين من حديث معي: «صديقتي الغالية... أنا ألكسي، خطيبك السابق. لقد خطب أهلونا أحدنا للآخر منذ كنا طفلين. هل نسيتني؟ تذكري.. أنا من قريتك!». قلت: «ماذا يقولون عني هناك؟». أجاب ألكسي ضاحكًا: «يقول الناس إنك نسيتِ خفر العذارى، وتعلقتِ بلص من قطاع الطرق». قلت: «وأنت ماذا كان رأيك فيَّ؟». قال: «هناك أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها (اضطرب قلبه)... كنت أريد أن أقول أشياء كثيرة... أما وأنني رأيتكِ الآن، فقد ضعت. خذي روحي يا جميلتي، دوسي قلبي، اهزأي بحبي، أنا الآن يتيم. وأنا سيد نفسي. نفسي ملكي لم أبعها لأحد...». أخذت أضحك. وكلمني مرات أخرى أيضًا. وبقي في القرية شهرًا بكامله... ترك تجارته، صرف عماله، وبقي وحده. أشفقتُ على دموعه. دموع اليتيم.

قلت له: «ألكسي، انتظرني عند الجسر متى هبط الليل. سنذهب إلى منزلك سئمتَ الحياة هنا». جاء المساء، وأعددتُ حقيبتي... وحانت مني إلتفاتة، فإذا أنا أرى مولاي راجعًا على حين فجأة. قال: «يومك سعيد. هيا بنا. ستهب العاصفة. يجب أن لا نضيّع الوقت». تبعته. وصلنا إلى ضفة النهر، نظرنا. رأينا هنالك زورقًا ورُبَّانا.. لكأنه كان ينتظر أحدًا.. فقال له: «يومك سعيد يا ألكسي. أعطاك الله العافية! ماذا؟ هل تأخرت في المرفأ؟... إنك ستسارع للحاق بالسفن... فخذنا معك، أنا وزوجتي... لقد تركتُ قاربي هناك، ولا أستطيع أن أذهب إليه سباحةً!». قال ألكسي: «اجلس» شعرت بألم يجتاح نفسي كلها حين سمعت صوته. «اجلس أنت وزوجتك. الريح مواتية لنا جميعًا، وفي منزلي مكان لكما». جلسنا. أظلم الليل. اختفت النجوم، وهبت الريح، وأخذت الأمواج تعلو. كنا قد ابتعدنا عن الشاطئ مسافة فرسخ. لزمنا الصمت نحن الثلاثة. قال مولاي: «يا لها من عاصفة! إن العاصفة تنذر بشَرّ، ما رأيتُ في حياتي عاصفةً كهذه العاصفة على هذا النهر! زورقنا مثقل... لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة!». قال ألكسي: «نعم، لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة... واحد منا زائد إذن عن طاقة الزورق». كان صوته يرتجف ارتجاف حبل «اسمع يا ألكسي، لقد عرفتك طفلًا صغيرًا جدًا، وكنت لأبيك كالأخ. قل لي يا ألكسي هل تستطيع أن تصل إلى الشاطئ سباحة، أم تراك تهلك إذا حاولت ذلك؟». قال ألكسي: «لا... لن أستطيع الوصول إلى الشاطئ، وسأهلك في النهر». «اسمعي أنت يا كاترين، يا لؤلؤتي التي لا تقدر بثمن. إنني أتذكر ليلة كهذه الليلة، مع فرق واحد هو أن الأمواج لم تكن تعلو كما تعلو الآن، وكانت النجوم تتلألأ في السماء، وكان القمر يرسل أشعة في الفضاء... أريد أن أسألك هل نسيتِ تلك الليلة؟». قلت: «بل أذكرها». قال: «إذا كنتِ لم تنسيها، فأنتِ لم تنسي إذن الوعد المقطوع أيضًا... لم تنسي كيف علَّم الفتى الشجاع حبيبته الجميلة، الطريقة التي يجب أن تعمد إليها من أجل أن تسترد حريتها.... هه؟». قلت: «لا... لم أنسَ ذلك أيضًا؟». قال: «لم تنسي ذلك؟ إذن... فانظري الآن... المركب مثقل بنا. وقد حان أجَل واحدٍ منا. تكلمي يا حمامتي. قولي لي كلمتكِ الحلوة...».

همست كاترين تقول لأوردينوف:

- ولم أقلها...

ولم تكمل كلامها، فهذا هو صوت أصمّ يدوّي مناديًا على حين فجأة:

- كاترين!

ارتعش أوردينوف. كان مورين واقفًا عند الباب، لا يكاد يرتدي شيئًا غير غطاء من فراء ألقاه على جسمه، وكان شاحب الوجه كميت. إنه يحدق إليهما بعين تشبه أن تكون مجنونة. أخذت كاترين تنظر إليه وهي تزداد شحوبًا وكأنها منوَّمة.

قال الشيخ بصوت لا يكاد يُسمع:

- كاترين، تعالي إليَّ.

وخرج من الغرفة.

ظلت كاترين ساكنة، تنظر في الفضاء كما لو كان الشيخ ما يزال ماثلًا أمامها. ولكن الدم لم يلبث أن تدفق في وجهها فجأة، فجعل خديها الشاحبين حمراوين بلون الأرجوان، تذكر أوردينوف لقاءهم الأول.

قالت وهي تبتسم:

- إذن إلى الغد يا دموعي. إلى الغد. تذكر إلى أين وصلنا من القصة... «اختاري أحد اثنين يا جميلتي: من الذي تحبينه ومن الذي لا تحبينه». لا تنسَ أن تتذكر أننا وصلنا من القصة إلى هنا.

ثم أضافت تقول وهي تضع يديها على كتفي أوردينوف وتنظر إليه في حنان:

- سوف تنتظر ليلة كاملة.

تمتم أوردينوف يقول وهو يرتعد خوفًا عليها:

- كاترين، لا تذهبي إليه، لا تضيعي نفسك. إنه مجنون.

وناداها الصوت من وراء الحاجز:

- كاترين!

قالت كاترين لأوردينوف تسأله ضاحكة:

- ماذا؟ أتحسب أنه سيقتلني؟ نعمت مساءً يا قلبي، يا طائري، يا أخي.

قالت ذلك وهي تسند رأسها على صدره، بينما أخذت دموع تطفو من عينيها فجأة.

أضافت تقول:

- هذه آخر الدموع. ثم يا عزيزي. ستستيقظ غدًا للفرح.

وقبلته قبلة محمومة.

ركع أوردينوف أمامها محاولًا أن يثنيها عن الذهاب إليه، قائلًا:

- كاترين، كاترين، كاترين!

استدارت كاترين وهي تحييه بحركة من رأسها وتبتسم له، ثم خرجت من الغرفة.

سمعها أوردينوف تدخل على مورين. حبس أنفاسه وأنصت، ولكن لم يصل إلى سمعه شيء.

كان العجوز صامتًا، أو لعله قد أغميَّ عليه من جديد...

أراد أوردينوف أن يذهب إليها، ولكن ساقَيْه كانتا تترنحان... أحس بوهَنٍ شديد، فجلس على السرير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

2

حين استيقظ، لبث برهة طويلة لا يدرك في أية ساعة هو من الليل أو النهار! أهذا هو الفجر أم هو الشفق؟ ما تزال غرفته ظلماء. لم يستطع أن يحدِّد المدة التي قضاها نائمًا، ولكنه يحس أن نومه كان نومَ مريض. مسح وجهه بيده، كأنما ليطرد الأحلام ورؤى الليل. ولكنه حين أراد أن يضع قدمه على أرض الغرفة أحس أن جسمه كله كان محطَّمًا تحطيمًا. إن أعضاءه المتعبة ترفض أن تطاوعه، وأن في رأسه صداعًا، وأن كل شيء من حوله يدور، جسمه يرتعد من البرد تارة، ويحترق تارة أخرى. ثم عاد إليه وعيه، وعادت إليه ذاكرته، فاختلج قلبه حين عاش بخياله تلك الليلة كلها مرة أخرى.

بلغ قلبه من شدة الخفقان حين تذكر تلك الليلة، وبلغت إحساساته من القوة والجدة والنضارة والطراوة أنه خيِّل إليه أن كاترين لم تتركه منذ ساعات طويلة، بل منذ دقيقة واحدة. لمَّا تجف عيناه بعد، أو لعل هذه الدموع جديدة تتدفق من ينبوع في روحه الحارة! والشيء الغريب أن آلامه كانت عذبة في نفسه، رغم شعوره بأنه ما كان لكيانه كله أن يتحمل صدمةً كهذه الصدمة. وفي لحظة من اللحظات اعتراه ما يشبه الشعور بالموت، فكان مستعدًا لأن يستقبله استقبال زائر حبيب. كانت أعصابه تبلغ من شدة التوتر، وكان هواه يبلغ من قوة الغليان والاندفاع، وكانت روحه تبلغ من فرط الحماسة أن الحياة وقد أهاجها هذا التوتر تبدو كأنها توشك أن تنفجر فتفنى في لحظة وتزول إلى الأبد.

وفي تلك اللحظة نفسها تقريبًا، ترجَّع ذلك الصوت المعروف، جوابًا على قلقه، جوابًا على ارتعاش قلبه، ترجَّع ترجُّع تلك الموسيقى الداخلية التي تغنّي في نفس كل إنسان في ساعات فرحه وسعادته، إنه صوت كاترين الرزين، الرّنان كالفضة. فعلى مقربة منه، عند موضع رأسه تقريبًا، بدأ ذلك الصوت ينشد أغنية رخيمة حزينة في أول الأمر.. يعلو تارة، ثم ينخفض وينطفئ تارةً أخرى، ثم يرتعش بهوى عارم ويمتد بحرًا من حماسة وسيلًا من أنغام قوية لا نهائية، كالدقائق الأولى من سعادة الحب. إن أوردينوف يميز كلمات الأغنية أيضًا: هي كلمات بسيطة، رقيقة، حنونة، قديمة تعبر عن عاطفة ساذجة، بريئة، هادئة، صافية، مضيئة. ولكن أوردينوف كان يغفل عن الكلمات، فلا يسمع إلا الأنغام. ثم هو يسمع من خلال الكلمات الساذجة التي يصدح بها الغناء كلمات أخرى، كلمات يغلي فيها كل ما يضمه قلبه من صبوة، وكل ما ترنو إليه روحه من شوق وتوْق، كلمات تلبّي هواه، فهي تارة آخر أنَّة من أنات قلب أضناه الحب، وهي تارة فرحة الحرية، فرحة الروح التي حطمت أغلالها وطارت وضَّاءة حرة طليقة في الخضم اللانهائي، خضمّ الحب، هي تارة أولى العهود تقطعها الحبيبة على نفسها، مع صلواتها ودموعها وهمسها السرّي الخجول، وهي تارة شهوة امرأة سكرى خلعت العذار مبكرةً فرحةً بقوتها، فلا حجب ولا سرّ، تتبختر أمام عينه النشوى....

نهض أوردينوف عن سريره دون أن ينتظر ختام الأغنية. فسرعان ما توقف الصوت عن الغناء وناداه قائلًا:

- نعمت صباحًا يا حبيبي. انهض. تعال إلينا. استيقظ للفرح الوضاء. نحن ننتظرك أنا ومولاي. نحن أناس فضلاء... وقد خضعنا لمشيئتك. اطفئ الكره بالحب... قل كلمة عذبة حلوة!...

خرج أوردينوف من الغرفة مستجيبًا للنداء، ومضى يذهب إلى جيرانه كأنما على غير شعور. انفتح الباب أمامه، وسطعت ابتسامة صاحبة البيت الجميلة نيِّرة كالشمس. لم يرَ في تلك اللحظة ولا سمع إلا كاترين. إن حياته كلها وفرحته كلها قد انصهرت في قلبه على الفور صورةً وضاءةً هي صورة كاترين.

قالت وهي تصافحه:

- فجران انقضيا على لقائنا. الفجر الثاني ينطفئ الآن. انظر من النافذة...

ثم أضافت، مبتسمة:

- فجران كفجرَي الحب عند فتاة: الأول يصبغ خديها بحمرة الخجل، حين يأخذ قلبها يخفق وحيدًا، والثاني يحرقها كاللهب، بعد أن تنسى خجلها الأول، فهو يُنهد صدرها ويُصعد إلى وجنتيها دمًا قانيًا. مالك تتلبث على عتبة الباب؟ أهلًا بك وسهلًا. مولاي يحييك...

قالت ذلك وضحكت ضحكة رنانة كموسيقى، ثم تناولت يد أوردينوف وأدخلته الغرفة. استولى الخجل على قلبه. إن اللهب الذي كان يحرق صدره منذ قليل يبدو كأنه ينطفئ الآن. خفض عينيه محتارًا.. كان يخاف أن ينظر إليها، لم يرَ كاترين قبل الآن على مثل هذه الحال. إن الضحك والمرح يضيئان وجهها لأول مرة، وقد جفّفا الدموع الحزينة على أهدابها السود. يدها ترتجف في يده، ولو رفع بصره لرأى كاترين تحدِّق بعينيها المشرقتين إلى وجهه الذي جهّمه الاضطراب والهوى، مبتسمة ابتسامة الظفر.

وقالت أخيرًا:

- هلَّا نهضت أيها الشيخ! هلَّا قلتَ لضيفنا كلمة ترحيب؟... الضيف كالأخ... فانهض أيها الشيخ المتكبِّر... سلِّم على الضيف... تناول يده البيضاء وأجلسه إلى المائدة!

رفع أوردينوف عينيه، لكأنه يشعر لأول مرة بوجود مورين. كانت عينا الشيخ تحدقان إليه وكان الخوف من الموت قد أطفأهما. انقبض صدر أوردينوف حين تذكر هذه النظرة، التي سبق أن رآها تلتمع كالتماعها الآن تحت الحاجبين الطويلين المقطبين اهتياجًا وغضبًا، شعر ببعض دوار.. نظر حوله، فأدرك عندئذ فقط كل شيء. ان مورين ما يزال راقدًا في سريره. وهو مرتدٍ ثيابه كلها تقريبًا، كأنه كان قد نهض وخرج في الصباح. عنقه محاطة بوشاح أحمر هو الوشاح الذي كان على عنقه قبل ذلك. وفي قدميه بابوجان. واضح أن ألمه كان قد زال، ولكن وجهه لا يزال رهين الشحوب والصفرة. جلست كاترين قرب السرير مسندة ذراعها إلى المائدة، تنظر إلى الرجلين صامتة، الابتسامة لا تفارق شفتيها. وكان كل شيء كأنما تمَّ بأمرها.

قال مورين وهو ينهض جالسًا على السرير:

- نعم.. هو أنت... نزيل بيتي... أنا آثم في حقك أيها السيد... لقد أسأتُ إليك مؤخرًا حين عبثت بالبندقية... ولكن من ذا الذي كان يعلم أنك تصاب أنت أيضًا بنوبات صرع... هذا يحدث لي أنا كذلك... (أضاف يقول بصوت أجش، مرَضي، وهو يقطب حاجبيه ويشيح ببصره)، الشقاء ينزل على الإنسان من دون أن يطرق الباب مستأذنًا بالدخول، إنه يتسلل تسلل اللصوص. ولقد أوشكتُ أن أغمد سكينًا في صدرها هي (قال ذلك وهو يومئ إلى كاترين). أنا مريض، وكثيرًا ما تعتريني النوبة. اجلس. أهلًا بك!

كان أوردينوف ما يزال يحدِّق إليه ويتفرَّس به. صاح الشيخ نافد الصبر:

- لماذا لا تجلس؟ اجلس... ما دام هذا يناسبها هي. لكأنما من سروركما عشيقان....

جلس أوردينوف.

تابع الشيخ يقول ضاحكًا كاشفًا عن صفين من أسنان بيضاء سليمة:

- أرأيت إلى هذه الأخت التي لك!... إمرحا يا صديقي.. قل لي أيها السيد: هل أختك هذه جميلة؟ قل... أجب... انظر إلى تلألؤ وجنتيها. لماذا لا تنظر؟ إعجَب بالحلوة الجميلة... أظهر أن قلبك يتألم...

قطب أوردينوف حاجبيه، ونظر إلى الشيخ حانقًا. فارتعش الشيخ لهذه النظرة. إن غيظًا أعمى يغلي في صدر أوردينوف. إن غريزة صادقة كغريزة الحيوانات تجعله يحزر أنه أمام عدو رهيب. لكنه مع ذلك لا يدرك ما الذي يجري في نفسه. لم يسعفه عقله.

قال صوت وراء أوردينوف:

- لا تنظر.

إلتفت أوردينوف.

قالت كاترين ضاحكة:

- لا تنظر. قلت لك لا تنظر. إذا كان الشيطان هو الذي يحرِّضك، فارحم حبيبتك!

وفجأة تسمرت وراءه، وعصبت عينيه بيديها. ولكنها لم تلبث أن سحبتهما، وغطت بهما وجهها. إن حمرة خدَّيْها تظهر من خلال أصابعها. نزعت يديها وحاولت، وقد احمرت احمرارًا شديدًا، أن تواجه ابتساماتهما ونظراتهما المستطلعة مواجهة جريئة بغير تحرُّج. ولكن الرجلين ظلا ساكتين يرنوان إليها: فأما أوردينوف فهو يرنو إليها بدهشة الحب كأن هذا الجمال الرهيب ينفذ إلى قلبه لأول مرة، وأما الشيخ فيرنو إليها بانتباه وبرود، يعبِّر وجهه الشاحب عن شيء، وإنما تختلج شفتاه المزرقّتان اختلاجًا خفيفًا.

اقتربت كاترين من المائدة وقد كفت عن الضحك. وأخذت تنضِّد الكتب والأوراق والمحبرة وكل ما كان على المائدة، ثم تحملها جميعًا إلى المنضدة الصغيرة عند النافذة. لقد أصبحت أنفاسها سريعة منقطعة، وأصبحت في بعض اللحظات تستنشق الهواء عميقًا، كأن قلبها يختنق. إن صدرها يعلو ويهبط بطيئًا كموجة. وخفضت عينيها وتلألأت أهدابها السود فوق خدَّيها كإبر دقيقة.

تمتم الشيخ:

- ملكة!

ودمدم أوردينوف وهو يرتجف من رأسه إلى قدميه:

- حبيبتي!

ولكنه ثاب إلى رشده إذ أحسَّ بنظرة الشيخ تنصبُّ عليه. لقد سطعت هذه النظرة خلال ثانية سطوعَ برق: شرهةً خبيثةً باردةً مزدرية.

أراد أوردينوف أن ينصرف، ولكنه شعر أنه مسمَّر في مكانه بقوة لا تُرى. جلس من جديد. إنه يشد في بعض اللحظات على يديه، ليتأكد من أنه في يقظة، لأنه يحس أن كابوسًا يجثم على صدره ويخنقه، وأنه ألعوبة في يد حلم أليم مَرَضي. ولكن الأمر الغريب أنه كان لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم.

نزعت كاترين عن المائدة غطاءها العتيق، ثم فتحت صندوقًا، فأخرجت منه مفرشًا مطرَّزًا بالحرير والذهب، فغطت به المائدة، ثم تناولت من الخزانة آنية فضية لحفظ الخمور، لجَدِّ جدها، فوضعتها في وسط المائدة، ثم أعدت ثلاثة أقداح من الفضة، واحد للضيف، وواحد لرب البيت، وواحد لها، وبعد ذلك نظرت إلى الشيخ وإلى أوردينوف مفكرة ساهمة.

قالت:

- من منا يحب من؟ إذا كان واحد منا لا يحب آخر، فهذا الآخر أنا أحبه وسيشرب قدحه معي. إنني أحبكما كليكما، حبَّ القريب للقريب. فلنشرب معًا للحب والسلام!

قال الشيخ بصوت أشوه:

- فلنشرب، ولتغرق في الخمرة أفكارنا القائمة. صبِّي يا كاترين!

سألت كاترين وهي تنظر إلى أوردينوف:

- وأنت، هل تريد أن أصبَّ لك؟

فقدم أوردينوف قدحه من دون أن ينطق بكلمة.

قال الشيخ وهو يرفع قدحه:

- انتظري... إذا كان لأحدٍ رغبة ما، فلنحقق هذه الرغبة!

تلاطمت الكؤوس وشرب الثلاثة.

قالت كاترين متجهة بكلامها إلى رب البيت:

- والآن فلنشرب نحن الاثنين. فلنشرب إذا كان في قلبك حنان عليَّ وحب لي. لنشرب تحية للسعادة التي عشناها... تحيةً للسنين الماضيات، تحيةً للهناء والحب! مرني إذن أن أصبَّ لك إذا كان قلبك يحترق هيامًا بي!

قال الشيخ ضاحكًا وهو يمد قدحه من جديد:

- خمرك قوي يا جميلتي، ولكنكِ لا تزيدين على أن تبلّي به شفتيك بلًّا.

قالت كاترين:

- سأشرب قليلًا، أما أنت فأفرغ قدحك حتى الثمالة. لماذا تعيش مع أفكار حزينة يا شيخي؟ ذلك لا يزيد على أن يعذب قلبك! الأفكار تنشأ من الألم، والألم ينادي الأفكار، فإذا كان الإنسان سعيدًا لم يفكر قَطْ! اشرب اشرب أيها الشيخ، أغرق أفكارك في الخمر.

- حزنكِ عظيم يا حمامتي البيضاء، وأنتِ تريدين أن تتخلصي منه دفعة واحدة. إنني أشرب معك يا كاترين. وأنتَ أيها السيد، أتأذن أن أسألك هل في قلبك حزن؟

تمتم أوردينوف يقول دون أن يحوِّل بصره عن كاترين:

- نعم، ولكنني أخفيه في أعماق نفسي.

قالت كاترين:

- هل سمعت أيها الشيخ؟ لقد ظللتُ زمناً طويلًا لا أعرف نفسي، ولكنني عرفتُ بعدئذ كل شيء، تذكرتُ كل شيء، عشتُ الماضي كله من جديد.

قال الشيخ مفكرًا:

- نعم، إنه لشيء حزين أن يتذكر المرء الماضي. ما مضى هو كالخمر الذي شُرب... ما نفع السعادة الماضية... متى بليَ الثوب وجب أن يُرمى...

قالت كاترين ضاحكةً بينما تدلت على أهدابها عَبَّرتان كبيرتان تشبهان الماس:

- لا بد عندئذ من ثوب جديد. هل فهمت أيها الشيخ... انظر لقد دفنت في كأسك دموعي.

قال أوردينوف متهدِّج الصوت من الانفعال:

- وسعادُتك، هل اشتريتها بحزن كثير؟

قال الشيخ:

- لعل عندك، أيها السيد، سعادةً كثيرة تريد أن تبيعها! ما هذا الذي تتدخل فيه ؟

قال الشيخ ذلك وانفجر يضحك ضحكًا خبيثًا على حين فجأة، وينظر إلى أوردينوف غاضبًا.

قالت كاترين:

- اشتريتها بما اشتريتها به... فبعضهم يرى الثمن باهظًا وبعضهم يراه بخسًا... واحد يريد أن يبيع كل شيء وأن لا يخسر شيئًا، وآخر لا يعد بشيء، ولكن القلب المطواع يتبعه... وأنت دعك أنت من الملامات (أضافت ذلك متجهة إلى أوردينوف بنظرة حزينة). صُب كأسك خمرًا أيها الشيخ اشرب تحيةً لسعادة ابنتك، لسعادة عبدتك الرقيقة العذبة الطيِّعة، كما كانت حين عرفتك أول مرة... ارفع كأسك!

قال الشيخ وهو يتناول الخمر:

- لك ما تشائين! واملئي كأسك إذن.

- انتظر أيها الشيخ، لا تشرب بعد. دعني أقول كل شيء قبل أن تشرب...

كانت كاترين مسندةً ذراعيها إلى المائدة، تحدق إلى الشيخ بعينين محمومتين. إن عزيمةً غريبةً تسطع في نظرتها. حركاتها كلّها هادئة، إشاراتها متقطعة، سريعة، غير متوقعة. إنها كمن يحترق بنار. ولكن جمالها يعظم بالانفعال والانتعاش. وشفتاها المنفرجتان تكشفان عن صفّين من أسنان بيضاء كاللآلئ. وطرف ضفيرتها المفتولة حول رأسها ثلاث مرات متهدِّل على أذنها اليسرى بإهمال، وعرق قليل يخضِّل صدغيْها.

- اقرأ هنا يا صديقي، اقرأ في راحة يدي قبل أن يظلم فكرك. إليك يدي البيضاء فاقرأ في راحتها. ما أخطأ الرجال في بلدنا حين سمّوك ساحرًا. انظر في يدي أيها الشيخ وحدّثني عن حظي الحزين. ولكن حذار أن تكذب! قل هل ستكون ابنتك سعيدة؟ أم تراك سوف لا تغفر لها، وسوف تدعو عليها بسوء الطالع؟ هل سيكون لي ركن دافئ أعيش فيه سعيدة، أم سأظل حياتي كلها كالطائر المهاجر أبحث لي عن مكان بين الناس الأخيار؟ قل لي من هو عدوي، ومن الذي يحبني، ومن يهيئ لي الضَّرّ؟... قل هل سيظل قلبي الفتي الحار يحيا وحيدًا، أم أنه سيجد القلب الذي يخفق معه للفرح... إلى أن يحل شقاء جديد؟... قل لي في أية سماء زرقاء وراء أي بحر، وسط أية غابة، يقيم صقري؟ أهو ينتظرني مشتاقًا نافد الصبر، أهو يحبني كثيرًا، أم تراه سيكف عن حبي قريبًا؟... هل سيخدعني ويخونني أم لا؟ وقل في الوقت نفسه، قل لي آخر مرة أيها الشيخ، هل سنبقى معًا مدة طويلة في مسكننا البائس هذا نقرأ كتبًا شيطانية؟... قل لي هل ستحين اللحظة التي أودّعك فيها شاكرةً لك أنك أطعمتني وحكيتُ لك قصصًا.. ولكن حذارِ ثم حذارِ... قل الحقيقة كلها، ولا تكذب! لقد آن الأوان.

كانت حمياها تزداد على قدر إمعانها في الكلام، ولكن الاهتياج لم يلبث أن حطّم صوتها، كأن زوبعة عصفت بقلبها. عيناها تسطعان، وشفتها العليا تختلج قليلًا. مالت على الشيخ من فوق المائدة، وأخذت تحدِّق إلى عينيه المضطربتين بانتباه نَهِم.

سمع أوردينوف دقات قلبها حين توقفت عن الكلام... أطلق صرخة حماسة وهو ينظر إليها، وأراد أن ينهض عن المقعد. ولكن النظرة السريعة العابرة التي ألقاها عليه الشيخ سمَّرته في مكانه من جديد. إن مزيجًا غريبًا من الاحتقار والسخرية

والقلق والبرَم، ومن الاستطلاع الخبيث الشرير الماكر في الوقت نفسه، كان يسطع في تلك النظرة الخاطفة السريعة التي كانت تُرعِش أوردينوف في كل مرة، وفي كل مرة كانت تملأ قلبه غيظًا وغضبًا عاجزًا.

كان الشيخ ينظر إلى كاترين مفكرًا مستطلعًا محزونًا. إنه مصعوق القلب، ولكن ما من عضلة في وجهه تختلج. فلما أنهت كلامها لم يزد على أن ابتسم. ثم قال:

- تريدين أن تعرفي أشياء كثيرة مرةً واحدة، يا طائري الصغير الذي لم يكد يخرج من العش! صبِّي لي إذن بمزيد من السرعة في هذه الكأس العميقة. ولنشرب أولًا تحية للسلام... وإلا فإن عينًا سوداء معتكرة ستفسد علينا أمنياتنا... إن الشيطان قوي قدير!...

رفع الشيخ كأسه وشرب. فكلما أمعن في الشراب أمعن وجهه في الشحوب والاصفرار. عيناه حمراوان كالجمر. إن بريقهما المحموم، وإن ازرقاق وجهه ينذران بأن نوبةً جديدة توشك أن تعتريه.

وكان الخمر قويًا، فكل كأس جديدة يشربها أوردينوف، كانت تزيد عينيه زيغانًا. إن دمه المحموم المشتعل لا يطيق احتمال مزيد من الخمر. كان عقله يضطرب، وكان قلقه يشتد.

صب أوردينوف لنفسه خمرًا وجرع جرعة، لا يعلم ماذا يفعل ولا يدري كيف يهدّئ هياجه المتزايد. إن دمه يجري في شرايينه بمزيد من السرعة أيضًا. كان كمن يهذي، فهو لا يكاد يستطيع أن يدري ما يجري حوله رغم شدة اهتمامه به وانتباهه إليه.

قرع الشيخ كأسه بالمائدة في صخب، وهتف يقول:

- صبِّي يا كاترين صبِّي أيضًا أيتها البنت الشريرة! إملئي الكأس إلى آخره. نوِّمي الشيخ حتى الموت! صبِّي أيضًا صبِّي يا جميلتي... وأنت لماذا لم تشرب إلا قليلًا جدًا؟... أتحسب أنني لم ألاحظ ذلك؟

أجابته كاترين بكلام لم يسمعه أوردينوف... لم يدعها الشيخ تكمل كلامها أمسك يدها، كأنه أصبح لا يقوى على أن يحبس في صدره كل ما كان يثقل صدره. إن وجهه شاحب، وإن عينيه تظلمان تارة، وتسطعان ببريق قويّ تارة، وإن شفتيه الصفراوين تختلجان. قال بصوتٍ يسمع المرء فيه فرحًا غريبًا في بعض اللحظات:

- هاتِ يا جميلتي، هاتِ. سأقول لك الحقيقة كلها. أنا ساحر يا كاترين ما أخطأ ظنكِ: قلبكِ الذهبي ألهمك الحقيقة. غير أن هناك أمرًا لم تفهميه: هو أنني أنا الساحر، لست بمن يعلّمك العقل. إن رأسك ثعبان ماكر، رغم أن قلبك مليء بالدموع. سوف تهتدين إلى طريقك بنفسك، سوف تتسللين بين الشقاء. فأحيانًا تتغلبين بالعقل، فإذا لم يكفِ العقل، بهرت بالجمال. تثيرين الفكر، تحطمين القوة، فإذا القلب ينشقّ ولو كان من البرونز... وتسألين: هل ستنزل بك مصائب. هل سيلمّ بك شقاء وعذاب؟ إن العذاب الإنساني أليم، ولكن الشقاء لا يلمّ بالقلب الضعيف. وشقاؤك يا جميلتي سيكون مثله كمثل خطٍ على رمل: فسرعان ما تغسله الأمطار، وتجففه الشمس، وتمحوه الريح!

انتظري... سأقول لك مزيدًا من القول. أنا ساحر. من ستحبينه، ستكونين له عبدة. أنت نفسك سترهنين حريتك ثم لا تستردينها... ولكنكِ لن تستطيعي أن تكفي عن الحب لحظة يحين الأوان. سوف تبذرين بذرة، فيجني الذي أغواك السبيل كله... يا طفلي الحلو، يا رأسي الذهبي، لقد خبأت في كأسي عبرة من عبراتك تشبه لؤلؤة، ولكنكِ أسفتِ عليها! ثم سكبتِ مائة عبرة! ولكن ما ينبغي لكِ أن تأسفي على هذه العبرة، على هذا الندى السماوي، لأنها ستعود إليك، ثقيلة مزيدًا من الثقل، تلك العبرة التي تشبه لؤلؤة، ستعود إليكِ في ليلة غير ذات نهاية، ليلة عذابٍ مرّ، حين توافيك فكرة عكرة فتأخذ تأكلك أكلًا. من أجل تلك العبرة، ستسقطً على قلبك المحترق، عبرة شخص آخر، عبرة من دم، حارة حرارة رصاص منصهر، سوف تحرق هذه العبرة نحرك الأبيض حتى تصل منه إلى الدم، وإلى أن يطلع نهار كالح حزين قاتم جَهم، ستظلين على فراشك تاركةً لدمكِ القاني أن يسيل، ولن تبرئي من جرحك النازف إلى الفجر التالي صبِّي أيضًا يا حمامتي، اسقني جزاء ما أسديتُ إليكِ من نصائح... وما أنتِ في حاجة إلى معرفة المزيد... ولا خير في تبذير الكلام سدى بغير طائل...

كان صوته يضعف ويرتجف. وكان نشيج يهم أن يخرج من صدره. صبَّ خمرًا، وأفرغ في جوفه كأسًا أخرى شربها بشراهة. وقرع المائدة بالكأس مرة أخرى. وعادت نظرته المضطربة تسطَع من جديد هتف يقول:

- عيشي يا كاترين، عيشي كما تريدين أن تعيشي! ما مضى فقد مضى. صبِّي أيضًا.. صبِّي حتى يسقط رأسي، حتى تفنى روحي كلها... صبِّي حتى أنام ليالي طويلة، وحتى أفقد الذاكرة فقدانًا تامًا.. صبِّي صبِّي أيضًا يا كاترين!

ولكن يده التي تمسك الكأس تبدو كأنها مخدَّرة، فهي لا تتحرك. كان يتنفس تنفسًا ثقيلًا، وكان يتنفس بمشقة. مال رأسه... ومرة أخيرة ألقى على أوردينوف نظرة كابية، وحتى هذه النظرة لم تلبث أن انطفأت. وسقط حاجباه أخيرًا ثقيلين كالرصاص، وشاعت في وجهه صفرة كصفرة الموتى. واختلجت شفتاه بضع لحظات أيضًا، وارتجفتا كأنه يبذل جهدًا من أجل أن يقول شيئًا. وفجأة رُئيت دمعة كبيرة تتعلق بأهدابه ثم تسقط وتسيل بطيئةً على خده الشاحب...

لم يطق أوردينوف صبرًا. فنهض، وسار نحو كاترين مترنح الخطى. تناول يدها. ولكنها لم تنظر إليه... حتى لكأنها لا تراه ولا تعرف من هو...

كانت هي أيضًا كمن فقد وعيه، وكان يبدو أن فكرةً واحدة تشغلها، فكرة واحدة، ارتمت على صدر الشيخ الوسنان، وأحاطت عنقه بذراعها، وثبتت فيه نظرتها المشتعلة حتى لكأنهما أصبحا كائنًا واحدًا.. كان يبدو أنها لا تشعر بأن أوردينوف ممسك يدها. وأخيرًا إلتفتت نحو الفتى، وألقت عليه نظرة طويلة نافذة، كأنها فهمت أخيرًا. فظهرت على شفتيها ابتسامة حزينة أليمة. وتمتمت تقول:

- اذهب. أنت سكران وشرّير. أنت لست صديقي.

وعادت تلتفت نحو الشيخ، وتثبِّت فيه بصرها. لكأنها ترصد كل خفقة من خفقات قلبه، وتهدهد بنظرتها نومه، وتخشى أن تتنفس، وتحضن قلبه المتأجج... وكان في كيانها كله من الإعجاب العاشق الموله، ما جعل أوردينوف يستبد به اليأس والحنق والغضب على حين فجأة.

ناداها وهو يضغط يدها بعنف:

- كاترين! كاترين!

إن الألم الذي يشعر به أوردينوف ينعكس في وجهه، إلتفتت كاترين، وألقت على أوردينوف نظرة تبلغ من التعبير عن السخرية والتحقير أنه أحسَّ بساقيه تنثنيان تحته. ثم أومأت إلى الشيخ النائم، ونظرت إلى أوردينوف مرة أخرى نظرة باردة مزدرية.

قال لها أوردينوف حانقًا أشد الحنق:

- ماذا؟ لسوف يقتلك!...

وكأن جنِّيا وسوس له أنه فهمها. فقال:

- سأشتريك من مولاك يا جميلتي، إذا كنت في حاجة إلى روحي! لن يقتلك.

إن الابتسامة الصامتة التي كانت تجمِّد أوردينوف لا تتحول عن وجه كاترين. ومن دون أن يعرف ماذا يفعل، أخذ يتلمس بيديه فينتزع من الجدار خنجرًا يملكه الشيخ، ظهرت الدهشة في وجه كاترين، ولكن الغضب والاحتقار لاحا في عينيها في الوقت نفسه وقد ازدادا عنفًا وقوة.

شعر أوردينوف بألم وهو ينظر إليها... إن قوة غامضة تدفع يده. أخرج الخنجر من غمده. إن كاترين تتابَعه بنظراتها ساكنة حابسة أنفاسها.

نظر أوردينوف إلى الشيخ.

فخيل إليه في تلك اللحظة أن الشيخ يفتح عينيه ببطء، وينظر إليه مبتسمًا. إلتقت أعين الرجلين. حدق أوردينوف إلى العجوز بضع دقائق ساكنًا لا يتحرك.. وفجأة تراءى له أن كل وجه الشيخ يضحك، و أن هذا الضحك الشيطاني ينفجر مدويًا في الغرفة آخر الأمر. وهذا خاطر أسود، كريه، يتسلل في رأسه تسلل أفعى... ارتجف... أفلت الخنجر من يديه، وسقط على أرض الغرفة مقرقعًا.

أطلقت كاترين صرخة، كأنها تستيقظ من كابوس قاتم أليم... نهض الشيخ عن سريره ببطء وقد اصفرَّ اصفرارًا شديدًا. ركل الخنجر بقدمه إلى ركن من الغرفة غاضبًا حانقًا... كانت كاترين شاحبة ساكنة كأنها ميتة... إن ألمًا رهيبًا لا يُطاق يرتسم على وجهها. وها هي ذي ترتمي على قدمَيّ الشيخ وهي تصرخ صرخة تشق النفس وتكاد تسقط مغشيًا عليها.

- ألكسي! ألكسي!

كذلك انطلقت هاتان الكلمتان من صدرها المخنوق.

حضنها الشيخ بذراعيه القويتين، وشدها إلى صدره شدًا قويًا. أخفت رأسها في نحر الشيخ، فأطلق الشيخ عندئذ، بكل قسمات وجهه، ضحكة تبلغ من قوة التعبير عن الظفر والانتصار، وتبلغ من شدة الهول أن الذعر استولى على أوردينوف. المكر، الحساب، الطغيان البارد المستبد الغيور، السخرية بقلبه الممزق، ذلك كله سمعه أوردينوف في تلك الضحكة.

دمدم يقول وهو يرتجف خوفًا:

- «مجنونة».

وولَّى هاربًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3

في الساعة الثامنة من صباح الغد كان أوردينوف يطرق باب ياروسلاف إيلتش شاحب الوجه مهتاج النفس، لما يبلّ من اضطراب الليلة البارحة. لو سألته لماذا جاء إلى ياروسلاف إيلتش لما عرف بماذا يجيبك، فما إن فُتح الباب حتى تقهقر من الدهشة، ثم تسمر في مكانه عند العتبة جامدًا، إذ رأى مورين في الغرفة، كان الشيخ أشد شحوبًا من أوردينوف أيضًا، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدَمَيْه، مهدود الجسم من المرض. ومع ذلك كان يرفض أن يقعد رغم أن ياروسلاف إيلتش يكرر دعوته له إلى الجلوس، سعيدًا بزيارته كل السعادة.

تهلل ياروسلاف إيلتش مبتهجًا حين رأى أوردينوف، ولكن فرحه تبدد في تلك اللحظة نفسها تقريبًا، واستبد به نوع من الضيق فجأة، عند منتصف الطريق بين المائدة والكرسي المجاور، فهو لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل. ولقد أدرك أنه من غير اللائق أن يدخّن الغليون في مثل هذه اللحظة، ومع ذلك ظلّ من فرط اضطرابه يدخن ما استطاع، بل يدخن بشيء من الحذلقة أيضًا.

دخل أوردينوف الغرفة أخيرًا. وألقى نظرة خاطفة على الشيخ. طاف في وجه الشيخ شيء يذكّر بالابتسامة الخبيثة التي رآها أوردينوف في وجهه أمس، والتي تثير ذكراها فيه الارتعاد والحنق. ولكن كل تعبير عن العداوة ما لبث أن زال، وعاد إلى وجه الشيخ هدوؤه وسكونه الذي لا يمكن النفاذ إليه. وسلم على أوردين بانحناءة كبيرة.

هذا المشهد كله أيقظ أخيرًا شعور أوردينوف، فحدق إلى ياروسلاف إيلتش يريد أن يفهم خطورة الموقف، اضطرب ياروسلاف إيلتش وشعر بحرَج

قال أخيرًا:

- ادخل، ادخل يا صديقي العزيز فاسيلي ميخائيلوفتش. أفرحني بزيارتك وشرّف بحضورك جميع هذه الأشياء التافهة...

قال ياروسلاف إيلتش وهو يشير إلى ركن في الغرفة. إنه أحمر الوجه كقرنفلة، وقد بلغ من الاضطراب والحرج أن الجملة المتفخمة التي بدأها انقطعت فجأة، وها هو ذا يجر كرسيًا إلى وسط الغرفة، فيُحدث ضجة كبيرة.

- ألا أزعجك يا ياروسلاف إيلتش؟ كنت أريد... دقيقتين لا أكثر...

- ما هذا الذي تقوله؟ أأنت تزعجني يا فاسيلي ميخائيلوفتش؟ هلّا قبلت قدحًا من الشاي من فضلك... من يخدم هنا؟ أنا واثق أنك لن ترفض فنجانًا ثانيًا...

كانت الجملة الأخيرة إضافة قالها متجهًا إلى مورين، فأومأ مورين برأسه معبرًا عن موافقته على شرب قدَح آخر.

دخل شرطي، فأمره ياروسلاف إيلتش بلهجة قاسية أن يُحضر ثلاثة أقداح من الشاي، ثم أقبل يجلس قرب أوردينوف. ظل بضع دقائق يدير رأسه يمنة ويسرة

كقطعة من خزف، متجهًا إلى مورين تارة وإلى أوردينوف تارة أخرى كان واضحًا أنه يريد أن يقول شيئًا هو في نظره محرجٌ كلّ الحرج بالنسبة إلى أحد الرجلين على الأقل، ولكنه رغم كل جهوده ظل عاجزًا عن أن ينطق بكلمة...

وكان يلوح على أوردينوف أنه في ضيق وحرَج هو أيضًا.

وجاءت لحظة فإذا بالرجلين كليهما يأخذان بالكلام معًا في آن واحد... أما مورين الصموت، الذي كان ينظر إليهما بكثير من حب الاستطلاع، فقد انفتح فمه ببطء، كاشفًا عن كل أسنانه...

قال أوردينوف مخاطبًا الشيخ:

- جئت لأقول لك إنني على أثر ظروف مزعجة جدًا أراني مضطرًا إلى ترك منزلك، و...

فقاطعه إيلتش صائحًا:

- شيء غريب جدًا... لقد طار عقلي من الدهشة حين أبلغني هذا الشيخ المحترم قرارك في هذا الصباح ولكن...

سأله أوردينوف مدهوشًا وهو ينظر إلى مورين:

- أبلغكَ قراري؟

كان مورين يلاعب لحيته ويبتسم.

قال ياروسلاف إيلتش مؤكدًا:

- نعم.. بل لعلني مخطئ... ولكنني أستطيع أن أحلف لك بشرفي أن أقوال هذا الشيخ المحترم لم تتناولك بأي سوء.

احمر ياروسلاف إيلتش ولم يستطع أن يسيطر على انفعاله إلا في عناء.

وكأنما ضاق مورين ذرعًا بعدم المبالاة باضطراب ربّ البيت، فتقدم خطوة إلى الأمام، وبدأ يقول وهو يحيي أوردينوف بأدب:

- إليك المسألة يا صاحب السيادة. إنك تعلم بنفسك يا سيدي أننا أنا وزوجتي كان يمكن أن نسعد من أعماق قلبيْنا، وكان يمكن أن لا نتجرأ على قول كلمة واحدة... ولكنك ترى بنفسك كيف تجري حياتي... إنك ترى أنني أكاد أحتضر.

قال مورين ذلك وعاد يلاعب لحيته بأصابعه.

شعر أوردينوف بأنه يوشك أن يهوي على الأرض.

- نعم... نعم... لقد سبق أن قلت لك ذلك. إنه مريض. تلك نازلة ألمَّت به، أردت أن أقولها بالفرنسية، ولكن اعذرني، إن لساني لا يجري طلقًا بهذه اللغة... يعني...

- نعم... نعم، يعني...

حيَّا كل من أوردينوف وياروسلاف إيلتش صاحبه تحية صغيرة، وهما جالسان على كرسيَّيْهما، ثم استأنف ياروسلاف إيلتش كلامه يقول:

- ثم إنني سألت هذا الرجل الشريف عن الأمر تفصيلًا، فقال لي إن مرض هذه المرأة...

وهنا ألقى ياروسلاف إيلتش، المرهف الشعور، نظرة سائلة على مورين.

- أقصد أن مولاتنا...

ثم لم يلح مزيدًا من الإلحاح، بل عاد يخاطب أوردينوف فيقول:

- نعم... إن صاحبة البيت... أقصد صاحبة البيت الذي تقيم أنت فيه وستتركه... امرأة مريضة. هو يقول إنها تضايقك في أعمالك... وأنت نفسك... لقد أخفيت عني أمرًا هامًا جدًا يا فاسيلي ميخائيلوفتش...

- ما هو هذا الأمر؟

أجاب ياروسلاف إيلتش بهمس تقريبًا، وبصوت يُسمع فيه شيء من العتب إلى جانب التسامح:

- أمر البندقية.

وأسرع يستأنف كلامه:

- أنا أعرف كل شيء. حكى لي كل شيء. لقد كنت أنت نبيلًا كل النبل حين غفرت له جريمته في حقك، وهي جريمة لم يتعمدها ولا أرادها... أحلف لك... لقد رأيت دموعًا في عينيه!

احمرَّ وجه ياروسلاف إيلتش من جديد. وإلتمعت عيناه. واضطرب على كرسيه منفعلًا أشد الانفعال.

قال مورين مخاطبًا أوردينوف، بينما أخذ ياروسلاف يحدق إليه وقد تخلص من اضطرابه:

- أنا... أقصد... نحن يا سيدي، أنا ومولاتي، ندعو لك اللّه دائمًا. ولكنك تعرف بنفسك يا سيدي أنها امرأة مريضة، حمقاء... وأنا امرؤ لا أكاد أستطيع التماسك....

قال أوردينوف وقد نفد صبره:

- ولكنني مستعد... كفى... أرجوك... فورًا إذا أردت.

- كلا يا سيدي. نحن مغتبطان بوجودك جدًا (قال مورين ذلك وهو ينحني انحناءة كبيرة). أنا يا سيدي... كنت أريد أن أقول لك الأمر كله فورًا. هي، يا سيدي، قريبة لي... تمت إليَّ بشيء من قربى... قربى بعيدة... إنها كذلك منذ الطفولة... رأس تعصف به الأهواء.. لقد نشأت وترعرعت في الغابة... كفلاحة بين الرجال الذين يجرون المراكب، والعمال الذين يعملون في المصنع... وفجأة احترق منزلهم... هلكت أمها في الحريق، وهلك أبوها أيضًا... إنها مستعدة لأن تروي لك هذه

الحكايات.. أنا لا أتدخل في هذا الأمر... ولكن يجب عليَّ أن أقول لك إن أطباء من موسكو قد فحصوها.. أعني يا سيدي... هي مجنونة تمامًا... هذه هي المسألة. أنا وحدي معها، وهي وحدها معي، نعيش. نصلي... ونأمل... ولكنني لا أعارضها في يوم من الأيام...

كان وجه أوردينوف مضطربًا أشد الاضطراب. وكان ياروسلاف إيلتش ينقل بصره بين الرجلين، فينظر إلى هذا تارة وإلى ذاك تارة أخرى.

استأنف مورين كلامه وهو يهزّ رأسه في وقار:

- ولكن لا.. يا سيدي.. هي كذلك.. رأسها يبلغ من الجنون أنها في حاجة دائمة إلى حبيب، إلى إنسان تناديه حبيبي... وأنا يا سيدي رأيت... اغفر لي أقوالي الحمقاء... (أضاف مورين ذلك وهو يحيي صاحبه ويمسح لحيته)... رأيت كيف كانت تذهب إليك، ورأيت كيف أردت سيادتك، أن تربط مصيرك بمصيرها....

احمر وجه ياروسلاف إيلتش حتى صار بلون الأرجوان، ونظر إلى مورين عاتبًا. أما أوردينوف فقد كان لا يستطيع الاستقرار على الكرسي.

- لا يا سيدي... أعني.. ليس هذا هو الأمر.. أنا يا سيدي.. أنا فلاح بسيط.. نحن عبيدك (أضاف ذلك وهو ينحني إلى الأرض), ونحن ندعو لك الله دائمًا أنا وزوجتي. نحن يكفينا أن يكون لدينا ما نأكله، وأن تكون صحتنا بخير هذا وحده يرضينا... أنت تعرف ذلك بنفسك يا سيدي... فارحمنا يا سيدي... وما عسى أن يحدث إذا أصبح لها عشيق جديد؟ اغفر لي هذه اللفظة البشعة.. أنت رجل مهذب يا صاحب السعادة... أنت رجل ذو كبرياء، وذو حمية... أما هي يا سيدي، فهي طفلة، طفلة بغير عقل... سرعان ما تقع في الإثم.. هي قوية البنية، وأنا مريض دائمًا.. ولكن ماذا تريد!... إن الشيطان يتدخل في الأمر.. أنا أقص عليها حكايات!... نعم يا سيدي. إننا أنا وزوجتي ندعو الله لك بالخير، لا نكف عن ذلك. هي جميلة، نعم، ولكنها ليست في آخر الأمر إلا فلاحة، إلا امرأة بسيطة... إنها لا تُحسن غسل جسمها... وهي حمقاء، تصلح لي أنا الفلاح.. أما أنت يا سيدي فلا تصلح لك.. وما أكثر ما ندعو لك الله بالخير!..

هنا انحنى مورين انحناءة كبيرة، وظل على هذه الحال من الانحناء مدة طويلة، دون أن ينتصب، ماسحًا لحيته بكمه.

لم يعرف ياروسلاف إيلتش ماذا يجب عليه أن يفعل.

قال مضطربًا كل الاضطراب:

- نعم، إن هذا الرجل الشهم قد حدثني عن شيء من سوء التفاهم وقع بينكما فيما يظهر. لا أجرؤ أن أصدق يا فاسيلي ميخائيلوفتش... سمعت أنك ما تزال مريضًا (كذلك قطع ياروسلاف كلامه بسرعة، منفعلًا جدًا، حين لاحظ اضطراب أوردينوف).

ألقى أوردينوف على مورين هذا السؤال فجأة:

- كم لك عليَّ؟

- ما هذا الكلام يا سيدي.. ما نحن بياعة المسيح!... لماذا تهيننا يا سيدي؟ هلا خجلت من مثل هذا السؤال... هل أسأنا إليك، أنا أو امرأتي؟... عفوك...

- ولكن هذا أمر غريب يا صديقي... لقد استأجر غرفة عندكم... أفلا تشعر أنك برفضك هذا إنما تهينه؟...

بهذا الكلام تدخل ياروسلاف إيلتش معتقدًا أن من واجبه أن يبين لمورين أن فعله هذا غريب خالٍ من اللباقة...

- ولكن عفوك يا سيدي... ما هذا الكلام يا سيدي.. أأخطأنا في حقك؟ لقد قمنا بكل شيء في سبيل أن نهيئ لك الراحة والمسرّة.. أرجوك يا سيدي.. ماذا؟ أنحن أناس لا نعرف الوفاء؟.. لأن يعيش بيننا، ويقاسمنا طعامنا، طعام الفلاحين، فهنيئًا مريئًا... ما كان لنا أن نقول شيئًا في هذا.. ولكن الشيطان تدخل في الأمر.. أنا مريض، وزوجتي مريضة أيضًا.. فما العمل؟ كان يمكن أن يسعدنا وجوده معنا كل السعادة... ولكننا سندعو لك الله بالخير، أنا وزوجتي!...

مرة أخرى انحنى مورين انحناءة كبيرة. وظهرت في عيني ياروسلاف إيلتش دمعة، ونظر إلى أوردينوف في حماسة وقال:

- ما أنبل هذه السجايا! ما أعظم روح الضيافة المقدسة هذه التي يحتفظ بها الشعب الروسي.

نظر أوردينوف إلى ياروسلاف إيلتش نظرة غريبة من رأسه إلى قدميه.

قال مورين:

- وأنا يا سيدي.. نعم.. هذه هي المسألة... روح الضيافة.. هل تعلم؟ إنني أقدِّر الآن أن من الخير أن تبقى عندنا يومًا آخر (قال ذلك مخاطبًا أوردينوف). لا اعتراض لي على ذلك البتة.. ولكن زوجتي مريضة.. آه لو لم تكن عندي زوجتي! آه لو كنت وحيدًا... إذن لرأيت كيف أعتني بك.. إذن لرأيت كيف أشفيك من مرضك! إنني أعرف وصفات طبية.. حقًا.. لعلك تبقى عندنا يومًا آخر مع ذلك.

قال ياروسلاف إيلتش:

- فعلًا.. أليس هناك دواء ما؟

ولكن ياروسلاف إيلتش لم يتم كلامه.

كان أوردينوف ينظر إليه من قمة الرأس إلى أخمص القدم حانقًا مدهوشًا.

لا شك أن ياروسلاف إيلتش إنسان من أشرف الناس وأنبلهم، ولكنه فهم الآن كل شيء. يجب أن نعترف أن وضعه حرج جدًا. أراد لو ينفجر ضاحكًا كما يُقال. ولو كان في خلوة مع أوردينوف، أي في اجتماع بين صديقين كهذين الصديقين، لما استطاع أن يضبط نفسه، ولأخذته نوبة من مرح شديد لا قصد فيه ولا اعتدال،

ولكان ضحكه هذا ضحكًا نبيلًا على كل حال، حتى إذا انتهى الضحك صافح أوردينوف مصافحة ودّية، وحاول أن يقنعه مخلصًا بأن احترامه له قد ازداد ولم ينقص، وأنه يقدّره على كل حال، لأن هذا في طبيعة الشباب.. ولكن ياروسلاف إيلتش في وضع حرج بسبب رهافة شعوره، وشدة أدبه.. إنه في وضع حرج جدًا، الآن لا يدري ماذا يفعل.

قال مورين وقد انتعش لسؤال ياروسلاف إيلتش:

- دواء؟

ثم تابع يقول وهو يتقدم خطوة إلى الأمام: - أنا يا سيدي، أنا الفلاح.. أقول.. أقول إنك تسرف في قراءة الكتب يا سيدي.. أقول إنك أصبحت أذكى مما يجب. المثل عندنا يقول: تجاوز عقلكم العقل يا فلاحين.

قال ياروسلاف إيلتش بقسوة يقاطعه:

- كفى!

قال أوردينوف:

- أنا ذاهب. شكرًا يا ياروسلاف إيلتش.

وأضاف يقول واعدًا بتلبية دعوة ياروسلاف إيلتش الذي لم يستطع أن يثنيه عن الانصراف:

- سأجيء إليك حتمًا. الوداع الوداع!...

- وداعًا سيادتك... وداعًا سيدي! لا تنسَ.. زرنا أحيانًا...

لم يسمع أوردينوف مزيدًا. وخرج كالمجنون.

لقد نفد صبره، وأصبح لا يطيق أن يحتمل أكثر مما احتمل. كان كالميت. تجمَّد شعوره. أحسَّ بالمرض يخنقه خنقًا. ألا أن يأسًا باردًا كالثلج كان يستولي على نفسه. أصبح لا يحس إلا ألمًا أصم يخنقه ويمزق صدره. ودَّ في هذه اللحظة لو يموت. انثنت ركبتاه تحته، فجلس قرب صفٍ من الأشجار لا ينتبه لا إلى الناس الذين يمرون أمامه، ولا إلى الجمهور الذي أخذ يتحلق حوله، ولا إلى نداءات وأسئلة من يحيطون به. ولكن أوردينوف يسمع بين هذه الأصوات صوت مورين على حين فجأة. فيُنهض رأسه. كان الشيخ قد شقَّ طريقًا إليه بعد عناء. إن وجهه الشاحب رصين واجم. ليس هو الآن ذلك الإنسان الذي كان يضحك عليه بفظاظة عند ياروسلاف إيلتش. نهض أوردينوف. تناول مورين ذراعه وأخرجه من بين الجمهور.

قال مورين وهو ينظر إليه من جانب:

- أنت في حاجة إلى أخذ أمتعتك.

ثم هتف يقول بعد ذلك:

- لا تحزن يا سيدي أنت في ريعان الشباب، وما ينبغي أن تيأس...

لم يُجب أوردينوف بشيء.

- أأنت مستاء يا سيدي؟ واضح أنك زعلان... ولكنك مخطئ... إن من حق كل إنسان أن يحافظ على ما يملك...

قال أوردينوف:

- أنا لا أعرفك ولا أريد أن أعرف أسرارك... ولكن هي... هي...

نطق أوردينوف بهذا، وتدفقت دموع غزيرة من عينيه، فمسحها بكمه. إن حركته، ونظرته، وارتجاف شفتيه المزرقَّتين، إن كل شيء يُشعِر من يراه بأنه جُنَّ.

قال مورين مقطبًا حاجبيه:

- لقد قلت لك الأمر... هي مجنونة... أما لماذا وكيف أصبحت مجنونة، فذلك شيء لا حاجة بك إلى معرفته البتة... كل ما هنالك أنها، وهي على ما هي عليه، لي أنا. إنني أحبها أكثر من حياتي، ولن أهبها لأحد.

برق لهيب في عيني أوردينوف. وقال:

- ولكن لماذا.. لماذا أحس أنا بأنني كمن فقد الحياة؟ لماذا يتألم قلبي؟ لماذا عرفت كاترين؟

ابتسم مورين وأطرق يفكر، ثم قال:

- لماذا؟ لا أعلم.. النساء.. ليست النساء كقاع البحر... يمكن أن يُفهمن أخيرًا.. لكنهن ماكرات صحيح يا سيدي أنها أرادت أن تتركني لتذهب معك (كذلك أضاف يقول ذاهلًا)... لقد ضاقت بالشيخ... أخذت منه كل ما استطاعت أن تأخذ! وقد أعجبت بك فورًا... ولكن سواء أكنت أنت أم كان غيرك... أنا لا أعارضها. لو طلبت مني لبن العصفور لهيأته لها... أصنع بنفسي عصفورًا يدر لبنًا، إذا لم يكن في الكون عصفور كهذا... وهي مغرورة تحب الظهور، وتحلم بالحرية ولكنها لا تدري هي نفسها مصدر عذاب قلبها... الأفضل أن تبقى الأمور كما هي... هيه يا سيدي! إنك ما تزال شابًا في ريعان الصبَّا قلبك ما يزال حارًا متوقدًا.. اسمع يا سيدي.. ليس في طاقة إنسان ضعيف أن يضبط نفسه وحده. لو أعطيته كل شيء، لجاء من تلقاء نفسه يرد كل شيء، حتى لو أعطيته نصف الكون. لو وهبت الحرية لإنسان ضعيف، لأوثقها بيديه، وأعادها إليك. لا قيمة للحرية عند قلب ساذج... ولا يستطيع المرء أن يعيش مع طبع كهذا الطبع... أقول لك هذا كله لأنك شاب في ميعة العمر... ما أنت عندي؟ لقد جئت ثم ذهبت... سيَّان أنت وغيرك. كنت أعلم منذ البداية ما سيقع. ولكن ما كان ينبغي أن أعارض... ليس على المرء أن يعترض أي اعتراض إذا أراد أن يحتفظ بسعادته... كل شيء يمكن أن يقع (كذلك تابع مورين تفلسفه)، حين يغضب المرء يتناول خنجرًا، بل لقد يهجم أعزل اليدين من السلاح محاولًا أن يمزق عنق عدوه... ولكن يكفي أن يوضع في يدك خنجر، وأن يكشف لك عدوك عن صدره، حتى تتراجع....

دخل الرجلان فناء المنزل. رأى التتري مورين من بعيد، فخلع طاقيته احترامًا ورشق أوردينوف بنظرة خبيثة.

صاح مورين:

- هيه... هل الأم في البيت.

- نعم في البيت.

- قل لها أن تساعد في نقل الأمتعة... وعاون أنت أيضًا.

صعدا السلم. جمعت العجوز التي تخدم في بيت مورين، وهي في الواقع أم البواب، جمعت أمتعة المستأجر وجعلتها في حزمة.

- انتظر. سآتيك أيضًا بشيء بقي هناك، وهو لك.

قال مورين ذلك ومضى إلى غرفته. وعاد بعد دقيقة يمد إلى أوردينوف مخدة مطرزة هي المخدة التي جاءته بها كاترين حين كان مريضًا، ويقول له:

- إنها هي التي ترسل إليك هذه المخدة. والآن هيا انصرف، وحذار أن تعود إلى هنا (أضاف ذلك هامسًا)، وإلا ساءت الأحوال...

كان واضحًا أن مورين لم يقصد أن يهين الرجل، ولكن حين ألقى عليه نظرة أخيرة، فقد ارتسم على وجهه، بالرغم منه، تعبير عن الغضب والاحتقار؛ ثم اغلق الباب وراء أوردينوف باشمئزاز تقريبًا.

وبعد ساعتين كان أوردينوف يستقر عند الألماني سبيس. إن تينيش لم تملك أن صاحت «آه» حين رأته داخلًا، ثم لم تلبث أن استفسرت عن صحته، فلما علمت بمرضه، أسرعت تعالجه.

وأظهر الألماني العجوز لصاحبه، متباهيًا، أنه كان يتهيأ لوضع اللافتة عند العمارة، لأن مدة الإيجار المدفوع سلفًا إنما تنتهي في هذا اليوم. كان العجوز لا يفوِّت فرصة تتيح له أن يشيد بالدقة الجرمانية، وبالأمانة الجرمانية.

مرض أوردينوف في ذلك اليوم نفسه. فلزم سريره ولم يغادره إلا بعد ثلاثة أشهر. عادت إليه عافيته شيئًا فشيئًا وأخذ يخرج.

إن الحياة في منزل الألمانية رتيبة هادئة تجري على وتيرة واحدة. لم يكن طبع الألماني صعبًا. وكانت تينيش الحلوة على خير ما يتمنى المرء أن تكون. ولكن الحياة في نظر أوردينوف كانت تبدو فاقدة لونها إلى الأبد. أصبح أوردينوف حالمًا، سريع الاهتياج، وأصبحت حساسيته مرَضية، وشيئًا فشيئًا أخذت تسيطر عليه كآبة خطيرة جدًا، كآبة خبيثة...

أصبح لا يفتح كتبه أسابيع كاملة. وأصبح المستقبل يبدو له مظلمًا. وكانت موارده تشارف على نهايتها، وهو لا يعمل شيئًا، ولا يحفل بالغد. ولئن كانت حماسته القديمة للعلم وحميته السابقة والصور التي خلفها للماضي تعود إلى الظهور أحيانًا،

فإنها كانت لا تزيد على أن تخنق طاقته. أصبحت الفكرة لا تستحيل عنده إلى فعل. توقف الخلق، كأن تلك الصور جميعها كانت تتخذ في أحلامه أبعادًا ضخمة عن عمد، لتسخر من عجز صاحبها نفسه، وكان في ساعات حزنه يشبِّه نفسه، على غير إرادة منه، بتلميذ الساحر (6) ذلك الذي سرق من أستاذه الكلمة السحرية التي تأمر المكنسة بتفجير الماء، فإذا هو يغرق في الطوفان لأنه نسي كيف يقول: كفى.

تُرى هل ستستيقظ في نفسه فكرة أصيلة، كاملة؟ ترى هل سيصبح عَلَمًا من أعلام العلم؟ لقد كان في الماضي يؤمن بذلك على الأقل. والإيمان المخلص الصادق ضمانة المستقبل. أما الآن فكثيرًا ما يسخر من نفسه ومن ثقته العمياء، وهو لا يتقدم خطوة.

كان منذ ثلاثة أشهر قد خلق وألقى على الورق مخطط كتاب كان يعقد عليه آمالا لا حدود لها. كان هذا الكتاب يتناول تاريخ الكنيسة، وقد خرجت من قلم أوردينوف نتائج جريئة. ها هو ذا الآن يعيد قراءة هذا المخطط، ويفكر فيه، ويعدّ له، ويدرسه، ويبحث، ثم يرميه أخيرًا دون أن يبني على أنقاضه شيئًا. غير أن شيئًا يشبه الصوفية أخذ يغزو نفسه. كان المسكين يحس آلامه ويسأل الله أن يشفيه منها. لقد حكت خادمة الألماني، وهي امرأة عجوز روسية نقية جدًا، أن الساكن كان يصلي ويبقى راكعًا عند عتبة الكنيسة ساعتين كاملتين.

ولم يكن أوردينوف يقول لأحد كلمة واحدة عما حدث له. ولكن العاصفة كانت تهب في نفسه الجريحة أحيانًا ولا سيما ساعة الشفق، حين يذكره صوت النواقيس بأول لقاء له معها. إنه يتذكر عندئذ العاطفة التي كان يجهلها حتى ذلك الحين، والتي هزت صدره حين ركع قربها لا يصغي إلّا إلى خفقان قلبها الوجل، ولا يحس إلّا دموع الحماسة والفرح تنتشر على الأمل الجديد الذي يبرق في حياته. عندئذ كان عذاب الحب يحرق صدره من جديد بينما يعاني قلبه ألمًا مرًا محمومًا، وكأن حبه يزداد بازدياد حزنه.

وكثيرًا ما كان يبقى في مكان واحد ساعات بأسرها، ناسيًا نفسه، ذاهلًا عن حياته كلها غافلًا عن كل شيء في العالم، وحيدًا حزينًا، يهز رأسه يأسًا وحسرة ويتمتم قائلًا: «كاترين، حمامتي العزيزة، أختي الوحيدة!».

وهذه فكرة رهيبة مروعة تأخذ تعذبه، وتحاصره مزيدًا من المحاصرة يومًا بعد يوم، ثم تستحيل عنده إلى يقين فواقع؛ وهو أن عقل كاترين سليم، ولكن ما وصفها به مورين من أنها قلب ضعيف، هو وصف صادق. أصبح يلوح له أن هناك سرًا يربط كاترين بالشيخ ولكن كاترين، الجاهلة بالجريمة، قد أصبحت في قبضة يده خاضعة لسلطانه كحمامة بريئة. من هما؟ إن أوردينوف لا يعرف جوابًا لهذا السؤال ولكنه يرى أن طغيانًا فظيعًا لا مهرب منه يجثم على صدر هذه المخلوقة الشقية التي لا تملك أن تحمي نفسها، فيشعر أوردينوف من ذلك باضطراب في قلبه، وتمتلئ نفسه ألمًا عاجزًا.

كان يتصور كاترين إنسانة وضعوا على عينيها غشاوة، وأخذوا يخيلون إليها غادرين أنها تسقط وتهوي: إنهم يعذبون قلبها المسكين «الضعيف» تعذيب الشهداء؛

يصوِّرون لها الحقيقة على ما يريد لهم هواهم زورًا، يبقونها في العماوة عامدين، ويتملقون بالمكر قلبها العارم المضطرب، فيقصون بذلك، شيئًا بعد شيء، جناحَيْ نفس تتطلع إلى الحرية ولكنها عاجزة عن التمرد، عاجزة عن الانطلاق إلى الحياة.

أصبح أوردينوف يزداد توحشًا يومًا بعد يوم. ويجب أن نعترف بأن أصحابه الألمان كانوا يراعون توحشه ويحترمونه. وكان يؤثر لنزهته ساعة الشفق والأماكن المقفرة. وها هو ذا، في ذات مساء حزين ممطر يلقى ياروسلاف إيلتش في زقاق ضيّق موحش.

كان ياروسلاف إيلتش قد نحُلَ جسمه كثيرًا. إن عينيه الملتمعتين قد أصبحتا كابيتين، وإن شخصه كله يدل على أنه فقد أوهامه. كان يركض لعمل من الأعمال لا يطيق تأخرًا، وكان مبللًا متسخًا، وكانت قطرة من المطر تتدلى في صورة عجيبة على أنفه الدقيق الذي ازرقَّ الآن ازرقاقًا شديدًا. وكان عدا ذلك قد أرخى لحيتي عارضيه.

دُهش أوردينوف من اللحيتين، ودهش مما ظهر في صديقه من أنه يريد تحاشيه والهروب منه. شيء غريب. هذا الأمر جرحَ قلب أوردينوف الذي لم يكن قبل الآن في حاجة إلى عطف أحد. إن الشخص الذي عرفه أوردينوف قبل الآن بسيطًا طيبًا ساذجا - بل قل إذا شئت الصراحة غبيًا، ولكن على غير ادّعاء - إن هذا الشخص يبدو الآن لأوردينوف أحب إلى نفسه وأحلى في نظره.

والإنسان، في مقابل ذلك، ينفر من الشخص الغبي إذا رأى هذا الشخص الغبي، الذي لعله أحبه لغباوته نفسها، إذا رآه يصبح ذكيًا على حين فجأة. ولكن الحذر الذي عبر عنه ياروسلاف إيلتش حين نظر إلى أوردينوف نظرة أولى لم يلبث أن امَّحى، ثم إذا هو يجري مع أوردينوف حديثًا فيه كثير من الصداقة. قال له في أول الأمر إن هناك أعمالًا كثيرة ينبغي له أن يقوم بها؛ ثم قال له إنهما لم يلتقيا منذ زمن طويل؛ ولكن سرعان ما جرى حديثهما مجرى غريبًا على حين فجأة. أخذ ياروسلاف إيلتش يتحدث عن زيف البشر عامة، وعن شرور هذا العالم، وعن أن كل شيء باطل. وتحدث عن بوشكين بغير اكتراث، ثم قال في حق بعض الأصدقاء كلامًا يدل على مرارة في قلبه. وأشار أخيرًا إلى كذب أولئك الذين يزعمون أنهم أصدقاء، على حين أن الصداقة الحقّة لا توجد ولم توجد في يوم من الأيام. الخلاصة أن ياروسلاف إيلتش قد أصبح ذكيًا أكثر مما يجب.

لم يعترض أوردينوف بشيء، ولكن حزنًا كبيرًا استولى على نفسه، كما لو كان يدفن خير صديق من أصدقائه.

صاح ياروسلاف إيلتش يقول فجأة، كمن تذكر أمرًا هامًا جدًا:

- آه... تخيل.. كدت أنسى أن أحكي لك.. هناك جديد.. أفضي إليك به سرًا... هل تتذكر المنزل الذي سكنتَ فيه؟

ارتعش أوردينوف واصفر وجهه.

تابع ياروسلاف إيلتش يقول:

- تخيل أنني اكتشفت في هذا المنزل مؤخرًا عصابة من اللصوص.. أقصد من المهربين والمحتالين وسائر أنواع اللصوص. فاعتُقل بعضهم، وما يزال بعضهم الآخر ملاحقًا... وقد أصدرت أوامر مشددة... وهل تصدق؟ أتذكر صاحب العمارة، ذلك الشيخ العجوز جدًا، الوقور، الذي يدل مظهره على النبل...

- هه؟

- هل تؤمن بعد الآن بالإنسان؟ إنه هو رئيس العصابة كلها!

كان ياروسلاف إيلتش يتكلم بحماسة، ويتخذ من هذه الواقعة المبتذلة حجة للحكم بالسوء على البشر جميعًا. لقد كان هذا في طبعه.

سأله أوردينوف بصوت خافت جدا:

- والآخرون؟... ومورين؟...

- مورين؟ لا.. هذا شيخ محترم.. نبيل.. ولكن اسمح لي.. إن سؤالك هذا يلقي ضوءاً جديدًا..

- ماذا؟ أيكون واحدًا من أفراد العصابة؟

وثب قلب أوردينوف استطلاعًا.

قال ياروسلاف إيلتش وهو يرمق أوردينوف بعينيه المنطفئتين علامة التنكر:

- ولكن.. لا.. ما هذا الكلام!.. إن مورين لا يمكن أن يكون واحدًا منهم.. لقد سافر مع زوجته إلى بلده قبل الحادث بثلاثة أسابيع... علمت ذلك من البواب... هل تتذكره ذلك التتري القصير؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

ستنكا (ستيبان) رازين: زعيم ثورة القوزاق والفلاحين سنة1761.

[←2]

ياروسلاف إيلتش: هو مأمور قسم الشرطة بالحي.

[←3]

كوشماروف: اسم مشتق من الكلمة الفرنسية Cauchmar ومعناها الكابوس وقد دخلت اللغة الروسية.

[←4]

في العقوبة: المقصود هنا العقاب الكهنوتي، فالذين يَقتلون عن غير عمد كانوا يعاقبون هذا العقاب، فيُمنعون من تناول القربان المقدس ومن دخول الكنائس عدة سنين.

[←5]

«فيليم إيميليانوفتش»: لعله مدير الشرطة بالعاصمة.

[←6]

«تلميذ الساحر»: أسطورة من القرون الوسطى عرفها دوستويفسكي عن طريق قصيدة جوته التي ظهرت سنة 1797 بهذا العنوان.